الزيارة

ما حدث لـ عمر سعيد إبراهيم

رواية

العادلي، عمرو.
الزيارة : رواية /عمرو العادلي.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2020.
208صفحة، 20 سم.
تدمك :978-977-820-013-3
1- القصص العربية
أ- العنوان : 813
رقم الإيداع : 2019/21558
الطبعة الأولي : يناير 2020.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي – الجيزة – الهرم
هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772
هاتف محمول: 01000405450-01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الزيارة

ما حدث لـ عمر سعيد إبراهيم

عمرو العادلي

رواية

إلى الدكتور علي فرغلي
تكفي صداقتك عن نصف العالم

”أود من قرائي أن يسترخوا
أن يتابعوا القصَّة
دون حاجة إلى كتابة الملاحظات
أو حفظ الأسماء والتواريخ
فإنني أعِدهم بصدق
لن أختبرهم فيما قرأوه“

إي إتش جومبريتش
مؤرخ ومفكر إنجليزي

القسم الأول

البوابة

-١-

قالت أمي إن أبي يرقد هنا.

لم يعد يفصلني عن المبنى إلا عبور الشارع، ما أن لمست قدمي الأرض حتى داهمتني هِمّة مفاجئة لعبور البوابة، كانت بعض أشجار قليلة تنحني فوق حديدها وتُكَوِّن معبرًا للسيارات والناس، تبدو المساحات المظللة مضيئة بشكل ما، الشمس تتخلل الأغصان والأوراق، تصنع نوافذ صغيرة يُرقّط ضوؤها الطريق الأسفلتي تحت قدميّ. جئت إلى هنا وكلي حيوية وأمل في التعرّف على أبي، قالت أمي أيضًا إنه شخص في الخمسين ويُدعى سعيد إبراهيم.

بالأمس، كانت أمي تحتضر، راحت فيما يشبه الغيبوبة، اللحظات التي تسبق الموت ليس من الضروري أن تكون مهمة، عند توهان العينين وارتجافة البدن، تخرج الحروف مبتورة لا تُفضي إلى كلمات، ولا يُفهم منها قصد، لكن على العكس من ذلك كانت أمي؛ تكلمتْ كلامًا مكتملًا ومفهومًا، بل استرسلت في سرد الحكايات واحدة تلو الأخرى، حتى ظننتُ أنها أبدًا لن تموت، استحالت في هذا الوضع لمادة خام يمكنها وحدها أن تغزل العالم في ثوب جديد.

غابت أمي في وجْد من الصعب أن تصفه الكلمات، كانت كأنها تصطاد كائنات من أعماق محيط، ذهبت لمسافات بعيدة لم يرتدها أحد من قبل، طالت الفترة الزمنية بين الغرغرة

ومـا اعتقـدتُ أنـه طلـوع الـروح، تباطـأ الكيـان الشـفاف عديـم الـوزن حتـى يعطـي فريسـته الفرصـة كاملـة لتقـول مـا تريـد، وأن تعـترف بـما حـدث بالفعـل، فـلا وقـت لديهـا لتصويـب الأخطـاء فيـما التقطتـه آذاننـا، كانـت في وضـع يصعـب فيـه الكـذب، لا ترانـا بشـكل كامـل، أنـا وجـدتي، ربـما كنـا بالنسـبة لهـا أشـباحًا تتجـول حولهـا بـلا صفـة، ولا أبعـاد، فقـط كانـت منشـغلة بـما تـود أن تنقلـه إلينـا بأقـصى سرعـة ممكنـة.

في هـذه الأثنـاء، كنـتُ مفتونًـا بتجربـة الاحتضـار، أتابـع تطوراتهـا مـن البعيـد، نسـيتُ لثـوان أني أقـف أمـام أقـرب المخلوقـات، للحظـات، عاتبـتُ نفسي عـلى ذلـك، كنـتُ أراهـا -بعيـدًا عـن أنهـا أمـي- كائنًـا يعافـر مـن أجـل بقـاء قبـس منـه في أدمغـة الآخريـن، تنقـل الرسـالة لأشـخاص أفضـل منها حـالًا، أو بـالأدق، سـيبقون بعدهـا ولـو قليـلًا مـن الوقـت.

جلسـتْ جـدتي عـلى حافـة السريـر، رفعـتْ ذراع أمـي الهامدة في تقليـد سـاذج لحركـة الأطبـاء عنـد اختبـار الوفـاة، حركـت أمـي أصابعهـا ببـطء. كانـت تصرفـات جـدتي متناسـبة مـع شـخصيتها تمامًـا، فقـد تخطّـت الثمانـين وأصبحـت تجـد مـن يُـبَرّر ويدافـع عن كل مـا تفعلـه. دارت حـول سريـر أمـي، هـزت العمـود الحديـدي كـما لـو كانـت تقـف تحـت نخلـة وتنتظـر سـقوط الرطـب، دبّـت همّـة مفاجئـة في حركتهـا، وكأنهـا فرحانـة بالحالـة التـي وصلـت إليهـا ابنتهـا.

بالأمـس، حـين تركـتُ أمـي، تركـتُ معهـا بيتنـا القديـم، وتحـول هـذا الأمـس إلى ذكـرى طويلـة تبتلـع كل مـا فـات وتعيـد تشـكيله مـن جديـد، ذكـرى قـادرة وحدهـا عـلى إنعـاش

الأحداث ورسم المشاهد ونثر الروائح على الأماكن والناس، حتى تعطي انطباعًا، ولو زائفًا، بأن كل ما حدث يمكنه الحدوث مرة أخرى، برغم تشوّشه في دهاليز دماغي، كفيلم لم يكتمل تحميضه.

عندما أصبحت أمي تائهة بين الذكريات وشطحات الخيال أكدت لي أن حالة أبي تسوء يومًا بعد يوم، وعليّ أن ألحق به في آخر أنفاسه، نصحتني بأن أزوره وأتعرّف إليه قبل فوات الأوان، حتى ولو لم يتعرّف هو عليّ.

لم تذكر سيرة أبي كثيرًا أمامي، لا يهم ذلك، فسيرته لا تعني لي الكثير على أية حال، وكلمة "بابا" مفتقدة من قاموسي اللغوي منذ وعيت، لم أره ولو لمرة واحدة، ولا حتى عن طريق الصور، لم يكن له في بيتنا أثر يذكر، أصبح بالنسبة لي كائنًا متوقّعًا، يمكن أن يصبح وحشًا كاسرًا، ويمكن أيضًا أن يكون فراشة رقيقة.

كنتُ متلهفا لرؤية شخص أنتمي إليه ولم أره أبدًا، كانت أمي تقول "إن الجائع لا يدقق كثيرًا في الطعم"، وأقول على نفس القياس "إن المتلهف لا يدقق كثيرًا في أسباب لهفته".

اسمي المكتوب في البطاقة "عمر سعيد إبراهيم"، كان سعيد إبراهيم تكوينًا خالصًا لصالح الحكايات، لذلك يجب عليّ أن أُجمّعه من الخيال، أتوقّعه، ولكني فشلت في توفيق ملامحه من الشتات كل مرة. على أية حال، أنا لا أومن بأن الأب يشارك الأم في الإنجاب، ولكنه فقط يسلمها المفتاح لتكون أُما، ثم ينصرف لحاله، وتفتح هي الباب بعد ذلك وتُشكّل وحدها ابن حياتها.

قبل أن تموت أمي أعطتني ساعة، قالت إن أبي ورثها عن الأسلاف، وككل الأشياء المتوارثة، كانت تحمل قيمة إضافية لكونها مجرد ساعة، لها مينا باهت ومرقط، كما لو أصابه البَرَصْ، تتشنج عقاربها أثناء الدوران، ولها أستيك معدني مُقسّم لحلقات مفصلية على شكل جلد ثعبان، لا حجر بطارية يحرك تروسها، ولا شحن بلف زمبرك، كانت تعمل بنبض القلب. قالت أمي وهي تمد يدها بالساعة:

"خذ. طالما قلبك ينبض ستظل تدور. لا تُفرّط فيها مهما كان الثمن".

وبما أن الساعة في نظري لم تكن تساوي أي ثمن فلم أُعقّب على كلامها، أدخلت كفي في الأستيك وأغلقته على معصمي. ربما ستعينني عقاربها المعوجّة على رحلتي القادمة. لم أكن قد سمعت من قبل عن ساعة تعمل بنبض القلب، احتفظتُ بشيء آخر لم تعطه أمي لي، صورتها، كارت أبيض وأسود في حجم الكف. كانت ملامحها المتبسّمة هي مؤونتي الحقيقية التي أعانتني على خوض مغامرة المجيء إلى هنا.

كنت أُدقق النظر في ملابسي بين الحين والآخر، قميصي الكتان اللبني له زراير مربعة شفافة، وبنطلوني الجبردين بكسرتين متساويتين وكُبشة داخلية، لا بد كُبشة، وجيوبه معمولة من قماش ثقيل مخصوص. عند زيارة أبي، لم آخذ معي علبة شيكولاتة ولا كيس فاكهة، لكني اشتريت بروازًا فيه لوحة لفلاحة تحمل فوق رأسها "بلاّصًا"، فقد كانت لأمي روح فنية تحس بالأشياء، وترى عروقًا خفية في الجمادات يتدفق الدم من خلالها، وكانت أيضًا ترسم الحناء وتغني

المواويل وتدق الطبل، وبما أن الطيور على أشكالها تقع، فلا بد سيكون أبي على نحو -ولو قليل- من ذلك.

كان مجّرد تصوري بأن لي أبًا يُشعل بداخلي شحنة من الشجون، نبت أبي أولًا في الداخل، ثم كل ما تلا ذلك شكّله الخيال. بدأتُ رحلتي وأنا أحمل في يدي رواية لم تكتمل، وفوق كتفي تستقر حمّالة شنطة خفيفة فيها مستلزمات يوم واحد، حذائي الرياضي وبنطلوني الجينز أيضًا، كانا يدعمان الإيحاء بالحيوية وتدفق روح الشباب في حركتي وتصرفاتي، حرصتُ على أن أبدو لأبي شابًا جاء ليتحمّل المسؤولية كاملة أثناء مرض أبيه، كانت ملامح الناس من حولي شاردة بشكل ما، للحظة خاطفة، رأيتُ نفسي منتميًا لجنس أرقى منهم جميعًا، كأنهم أسلاف وأنا النسخة الحديثة من نسلهم، لم أتوقف أمام هذا التصور كثيرًا، تجاوزته لأنه تشكّل في لحظة غرور عارضة، تخطّيته لأرى بشكل أوضح الناس والأشياء من حولي. خلف البوابة يقف رجال أمن عابسون يلبسون قمصانًا بلون السماء وبناطيل بزرقة كالنيلة، حليقو الذقون خفيفو الشعر، يتلفّتون وهم يبحثون عن سلطة يفرضونها على أي كائن، ينظرون في تصريح الزيارة مرات وكأنهم وكلاء نيابة يفحصون أدلة جريمة.

اجتزتُ البوابة بدون استفسارات، في يدي تصريح الزيارة المختوم، دخلتُ وشُحنة نشاط تجتاحني، بعد أن اجتزتُ ردهة طويلة انتظرت أمام مصعد عطلان، لم أتوقف أمامه كثيرًا، صعدتُ السلالم وملامح أبي المتخيلة تتمثل أمامي بأطياف متنوعة. يأتيني في الأحلام على عكس الصورة الخرافية التي

ثبتُّها في عقلي، كان يقف باهت الهيئة صموتًا، عابس الملامح ولا يجيد إلا إلقاء الإرشادات والأوامر، ثم ينصرف، ولكني لا أثق في الخيالات التي تتشكّل عند بوابة الأحلام، لذا، أطلقت العنان لخيالي كي أتقبّل أبي على أية هيئة.

لقد جئتُ إلى هنا بدافع وصية واضحة لا لبس فيها، قالت لي أمي وهي تحتضر، بينما أرسم أنا على أصداف البحر:

"لم يعد لأبيك غيرك. اذهب اليه ووِدَّه".

وقالت أيضًا، إن أبي كان له أصدقاء كثيرون منذ سنوات بعيدة، أيام ما كان مكتمل الصحة والبنيان، أما بعد العطب المتوالي لأجهزته التي تتفاعل مع الحياة فقد تبخّر أصحابه المزعومون، وأصبح عليّ أن أزوره ربما لأساعده على الاحتضار هو الآخر، ولكني لا أعرف طبيعة حالته بالضبط، ولماذا يرقد في المستشفى؟

تسربتْ روائح مختلطة تزيد من سخونة الجو، تصببتُ عرقًا برائحة البيتادين ومواد التعقيم وعينات الدم، واستمعتُ لآهات من كل شكل ولون! ولكن كل ذلك يهون ما دمت سأجلس بجوار رجل قالت أمي إنه واضع بذرتي، أيام أن كان باستطاعته نثر البذور.

سألتُ عنه ممرضة بدينة تدفع "ترولي" صغيرًا معبأ بالأدوية والشاش قالت: مؤكد أنه يرقد في العنبر الأكبر بقسم الرجال، وقالت أيضًا إن بالعنبر ثمانية أسرّة وثمانية مرضى بأوجاع مختلفة وقصص متنوعة.

في الدور الرابع تلتصق نوافذ العنبر بمئذنة مسجد صغير،

ولا يقف على بابه أحد، بعد قليل خرج رجل قصير من العنبر، كان يلبس عفريتة ميكانيكي متسخة، عليها من الخلف "بادج" متهتك وحروفه تائهة في لُطع الشحم، اقترب مني ورفع رأسه عاليًا حتى يراني، ثم سأل:

- هل تبحث عن أحد؟

- أبحث عن أبي.

قلتُ، فضحك القصير، اهتز خرطوم قسطرة في يده الصغيرة، جلس على منضدة طويلة خشبها مخلخل فجلستُ بجواره، وضع الخرطوم على كتفه كالحبل وقال:

- معك سيجارة؟

بعد أن دخنّا السيجارتين وضحت ملامح القصير أكثر، كانت له عين مفنجلة وعين موارية بها حوَل. ولم يرد.

جاب الكلام بعضه مع الدخان، نعست سيجارته بين أصابعه وتنهّد، وعرفت أن اسمه حسن، لم يزد على ذلك، عندما أردتُ الاستفسار عن باقي اسمه صمت قليلًا ثم رد:

- أنا معروف في المستشفى بالكامل. يكفي أن تقول حسن. اطمئن. لا يوجد هنا حسن غيري.

لم أطمئن، ولم أكمل معه الحديث، نزلت من فوق المنضدة وذهب حسن لحاله، كرهت منضدته عندما عرفت أنه سحبها من مدرج تعليمي، وأن هذه الطاولة الكبيرة كانت مخصصة لتشريح جثث من قضوا في العنابر، أو هلكوا في غرف العمليات.

ابتعدت عن هذا الغريب الأحول، بحثت عن مكان

للجلوس، "حصيرة الصيف واسعة" كانت أمي تقول دائمًا.

لم أعثر على أي معلومات عن أبي حتى الآن. حاولت تفحّص النزلاء بترو، رأيتُ مرضى عاجزين عن ترك أسرّتهم، أو حتى تغيير وضع رقدتهم. لمحتُ حسن بجوار الشباك يحاول إغلاق ضلفته قليلًا، ثم نظر إليّ وابتسم، رمى عقب السيجارة بعدما سحب منها النفس الأخير وشفط جزءًا من الفلتر.

أكملت بحثي في الملامح، ربما أجد عينين يطل منهما بريق يشبهني، كانت أعين الراقدين متعبة ومنتفخة من تكرار النعاس، يلتصقون بأسرّتهم كأنهم أصبحوا جزءًا منها، يتأوهون كلهم باستثناء شخص واحد، رجل له بشرة شاحبة، بلون الصوف الطبيعي، يكبس في رأسه زعبوطًا مقلمًا من القطن، يندفس ولا تظهر منه إلا عينان صغيرتان، يتوسطهما أنف كبير نسبيًا. لا يمكنني تخيّله أبي، حاولتُ الانتقاء قدر استطاعتي، كنتُ أجنح لأختار الصنف الممتاز، فعندما يكون لدينا الاختيار نرى دائمًا أننا نستحق الأفضل.

سمعتُ حسن من خلفي، كان صوته قد حفر طريقه التدريجي للتميّز في أذني:

- هل تعرف أي شيء عن أبيك؟

- كل ما أعرفه أن اسمه سعيد إبراهيم.

أجبته وأنا أتخيّل بيننا حوارًا مُطوّلًا، ولكن حسن انصرف ليُكمل نقل مستلزمات طبية إلى العنبر، لم يكن توقفي عند حسن بسبب قصره وحوَله وردوده المقتضبة فقط، ولكنه كان

يتعامل كممرض وهو يلبس زيًّا غير رسمي، وغير نظيف، لم يكن أحد يعترض على ذلك، ليس هذا فحسب، ولكنه أيضًا لم يكن يلتفت للأطباء، ولم يتحدث كذلك إلى عمال النظافة أو الأمن، باختصار، كان يمر أمامي كطيف مرسوم على الجدران، لا يسأله أحد عن شيء، يبدو أنه كان يملك سطوة ما.

سمعتُ سائق الميكروباص قبل وصولي إلى هنا يتحدث عن أشياء غريبة تحدث في المستشفى، وعلى غير ما رأيت بعيني، قال إنه مستشفى نظيف لأن الحراس الجدد تولوا أمره منذ شهرين تقريبًا، لم أتوقف عند كلماته ولم أستفسر عما يقصده بكلمة "الحراس" لم تكن الكلمة بلا معنى، إذ كان في استيعابها مشكلة بسبب وفرة المعاني المفسّرة لها.

تسلل شجر باسق السيقان تطل أوراقه عبر النوافذ، حامت أسراب طيور صغيرة سوداء حول مبنى المستشفى وهي تصيح بصوت عال لا يناسب طيورًا بريئة ترفرف في السماء. كانت الحرارة شديدة والهواء متوقف عن العمل، وحسن يهش وجهه ويُروّح كفه بلا جدوى.

لمدة طويلة احتفظتُ بصورة لأمي في خيالي، حاولتُ كثيرًا أن أحتفظ لأبي بصورة مماثلة وفشلت، تخيلته وسيمًا بشكل ما. وتخيلت أمي وقد ولدتني بمجهودها الخاص، أو بمعنى أدق، تَحملتْ نزق أبي ونزواته حتى أتت بي، بعد ذلك لم يعد له أي لزوم، فقد أصبحتْ هي أمًّا. وفشل هو في ذلك.

لم تتركني حماسة الأطفال، كانت حماسة ناقصة، تفتقد لعنصر الطمأنينة، فهناك تضارب بين ما أحمله من أفكار وما

أنا ذاهب إليه، كانت زيارتي للمستشفى تتعلق بالمستقبل، فيما أفكاري التي أحملها كلها متمسكة بالماضي، حاولتُ قدر استطاعتي العيش في زمني المضارع لكي لا يفلت مني الحدث، أو يهرب، ولكنني كالعادة، فشلت في الإمساك بأي شيء.

حتى هذه اللحظة وأنا أرى منظر الأسرّة من البعيد، لا أمتلك الشجاعة الكافية لدخول العنبر، ربما بسبب رائحة المرض التي تخرج من كل شيء، بدءًا من الأطباء والمرضى، مرورًا بالحيطان الرمادية الكئيبة والعربات الصغيرة المخصصة لحمل الأدوية، وليس انتهاء بحسن وخراطيمه الكثيرة. كنت أرى حواف الأسرّة دون رؤية الراقدين فوقها بشكل يسمح لي بالتأمل الكافي. حاولت ضبط البرواز الذي ترقد فيه الفلاحة وتحمل فوق رأسها بلاّصا عدة مرات، وكذلك حاولتُ الحفاظ على الرواية التي في يدي من بلل العرق. سألني حسن نفس السؤال للمرة الثالثة:

- هل تعرف أي معلومات عن أبيك؟

- أعرف فقط أن اسمه سعيد إبراهيم.

كانت الساعة الثالثة والنصف حسب توقيت ساعتي أُم عقارب التي قالت أمي عنها أن الأجيال تتوارثها. خرج كل من كانوا في العنبر عدا المرضى، فسألت عنهم حسن:

- من هؤلاء؟

تأمل البرواز المغطى بورق جرائد تحت إبطي. ثم عوج رأسه محاولًا قراءة اسم الرواية التي أحملها، ولما فشل لعدة

مـرات نظـر للنـاس الذيـن يتدافعـون مـن حولنـا وقـال:
- هؤلاء هم الحراس الجدد.

***

مـن يُصـدق أنـك كنـت تعيـش مـع أمـك وجدتـك؟ أمـك طريحـة السريـر مريضـة، وجدتـك تنتمـي لأسـلاف أصبحـوا جميعًـا ترابًـا، تخطـت الثمانـين وأصبـح مـن الصعـب إقناعهـا بـأي شيء ممـا يجـري بالقـرب منهـا، فتتصـور دائـمًا أن كل مـن حولهـا يطمعـون فيهـا ويكرهونهـا، بالرغـم مـن أن البيـت الذي تعيشـون فيـه كان إيجـارًا والعفـش لا يأخـذه بائـع روبابيكيـا ببـلاش، لم تصـدق جدتـك أنـك لا أنـت ولا أمـك تكرهانهـا، ولكنهـا هـي التـي كرّهتكـما في العيشـة، بحركتهـا المتشـنّجة وحدبتهـا المعروفـة، وظلهـا الصغـير الـذي يتحـرك ملاحقًـا لهـا، وأحيانًـا يسـبقها، يراوغكـما حسـب موقـع الجسـم الأصلي مـن الضـوء.

كانـت جدتـك في الآونـة الأخـيرة تزغـر لذراعـك وهـي تتطـوح في الهـواء، تُديـم النظـر إليهـا في صمـت، لا يمكنـك القـول أنهـا نظـرة إعجـاب، ولكنهـا كانـت متابعـة دقيقـة لسـير الحركـة، كانـت تتأمـل التطويحـة كـما لـو أنهـا تتابـع حدثًـا مهـمًا، بعـد ملاحظتـك لذلـك عـدة مـرات كنـت تعيـد النظـر لذراعـك، لعـل في حركتـك خطأ مـا، فتجـد كفـك كـما هـي، خمسـة أصابـع لا زيـادة ولا نقصانـا، والكـف ملتصقـة برسـغك، والرسـغ يأخـذ بدايـة حركتـه مـن عظمـة الكـوع، تمامًـا كأي إنسـان عـادي. تقدمـتْ جدتـك في السـن وظلـت عيناهـا براقتـين، أمـا ملامحهـا، فكانـت تشـبه تماثيـل الخشـب الفرعونيـة.

ولكنك ذات مرة لا حظت شيئًا جديدًا، كنت تحمل شنطة ثقيلة منذ أيام، ومن فرط ثقلها تعلّقت بها ذراعك، تجمدت حركتها، لم تلتفت لك جدتك، ولكن عندما أنزلت حمولتك وبدأت ذراعك في الحركة عادت نظراتها المريبة كما كانت.

هذا المرض الغريب أصابها منذ عدة أشهر، لا تعلم إن كان يصلح تسميته بالمرض أصلًا أم لا، كانت تتربص بذراعك وهي تتطوح في الهواء، ثم تنقض من الخلف وتقضمها، عضة قوية تنقلب بعدها أصابعها لخطاطيف في صلابة حوافر، ولما فعلتْ الشيء نفسه مع أمك المريضة توجست من تركهما معًا، كنت كلما ذهبت لشراء شيء من البقال أو الخضري لا بد أن تجد مصيبة في البيت عند عودتك، كانت جدتك تركض خلف فريستها –التي هي دائمًا أنت أو أمك– تنقض على أقرب ذراع لفمها وتكاد تلتهما في وحشية، تقضمها بكل ما أوتيت من عزم النواجذ وإصرار الفكين، أصبحت ذراعاك وذراعا أمك دائمًا فيها خرابيش واضحة وعضات محفور فيها مقاس أسنانها، تعلمتَ بعد تكرار ذلك بعض الاحتياط، فلا تكلمها وأنت تعبِّر بأي إشارات جسدية، بل كنت تبتعد عن فمها الطائش قدر استطاعتك. ولما استشرت في المسألة رجلًا مسنًا ومهيبًا كان له بعض التقدير العام في مدينتك الصغيرة، قال كلامًا لم تستخلص منه إجابة شافية، قال إن جدتك عندها ترسبات أولية ورثتها عن أسلاف يبعدون عنكم بآلاف السنين، ربما كانوا رعاة إبل وأبقار بدائيين، وربما كانوا غنامين أو صيادين، المهم في ما قاله أن هؤلاء الأسلاف كانوا ضد كل وافد أو جديد يختلف عما

يعرفون، ظلوا كما هم لآلاف السنين لا يريدون مساعدة من أحد، حتى تقدمتْ عليهم جميع الأمم. وعندما تم اختراع حروف الكتابة لم يعترفوا بها، وظلوا يرددون أناشيدهم الشفاهية باستمتاع، أناشيد الرعاة والصيادين، وظلوا متخيلين أن الشكل الأمثل والأجمل للإنسان هو أن يكون بلا ذراعين، ولا بد من اختفاء هذين النتوءين بأي حيلة، وكانت طريقتهم المثلى في تطبيق قناعاتهم هي أن يأكلوا أذرع بعضهم بعضا، حتى أصبحوا مشهورين بين جميع القبائل باسم "الصخور". ظل الأطفال بعد ذلك يولدون لعدة أجيال على الشكل الجديد، بلا ذراعين، فقط عظمة صغيرة مقببة عند الكتف لتدل على مكان شيء ما انقرض. أجبرهم الشكل الجديد على تدريب الأولاد والبنات الصغار على تمرينات القدمين، وأصبحت أقدام هؤلاء الأسلاف المشهورين بـ"الصخور" تشبه جذوع الأشجار المُعمرة، صماء وعروقها كأوتاد صغيرة. وبعد أن أصبحت هذه القبائل القديمة ترى أن وضعهم هذا هو الطبيعي؛ أصبحوا يرون في الآخرين ذوي الذراعين عيبًا جسيمًا، فلا يلمح أحد منهم ذراعًا تتطوح في الهواء إلا وقام بالتهامها، وكان ذلك الفعل في تلك الأزمنة البعيدة يعتبر عملًا بطوليًا، حتى أن زعيم القبيلة كان يعطي مكافأة كبيرة لمن يأتي له بذراع واحدة، حتى ولو بدون صاحبها. سألت الرجل المسن فور الانتهاء من الاسترسال في أساطيره، هل لهذا المرض علاج؟ في البداية، شرح طريقة الوقاية وثقة بالغة تنضح من قسماته، وبما أن جدتك لم تكن تخرج من البيت أبدًا، فإن ما يثيرها ويؤجج شهوتها القديمة

في القضم هي أربع أذرع فقط، ذراعاك وذراعا أمك، طلب منك أن تربط ذراعيك بحبل خلف ظهرك، ثم ترتدي فوقها ملابسك، وكأنك أصبحت بلا ذراعين، وبدأت في إقناع جدتك بأنك قد فقدتهما، صدقتك بسهولة، وبالمثل لا بد أن تفعل أمك، وعندما نفذتما ما قاله الرجل جاءت الفكرة بنتائج إيجابية، فقد هدأت جدتك وقل حماسها كثيرًا نحو التهام الأذرع، ولكن ما حدث بعد ذلك كان شيئًا غريبًا، فبعد مرور ثلاثة أيام على هذا الوضع الصعب، بدأت تشعر بتنميل في ذراعيك وخدر، ومع مرور الوقت لم تعد تشعر بهما نهائيًا، كأنهما مستلزمات تم الاستغناء عنها، والأغرب أن جدتك التي فعلتَ كل ذلك من أجلها ما زالت تستخدم ذراعيها في الطهي والتشويح، وفي الضرب أيضًا.

-٢-

كلما توغل الغروب كانت جدران المبنى تزداد كآبة، ظلال الأشجار تبدو مشاركة في العتمة بشكل ما، والبوابات الكثيرة أيضًا، تُضفي غموضًا محتملًا على المبنى الواسع، تعانق ظلها الملقى على الأرض، وتتشابك مع ضفيرة سميكة من ظلال أعمدة إضاءة بعضها لا يُضيء. لم يكن أمامي أحد أتحدث إليه سوى حسن، أو بشكل أدق، هو الوحيد الذي كان ينفحني سؤالًا قصيرًا وهو داخل أو خارج. يرد بإجابات غير متوقعة على أسئلتي. انشغلتُ لمدة بالأجواء ونسيت مَن جئت مِن أجله، أبي. هممت بدخول العنبر والبحث في كل الموجودين عن عجوز يشبهني أو أشبهه، لم أكن أعرف سنة ميلاده حتى أخمن تجاعيده وأتخيل انحناءاته. لمح حسن فيَّ مسًّا من حيرة، فاقترب مني وقال بصوت به مسحة من طيبة:

- يمكنني أن أتعرف على أبيك بلا عناء.

- كيف؟

- تعال معي.

سرنا في طرقة طويلة، مررنا بلوحة مكتوب عليها اسم فلان باشا زوج علانة هانم وبنتهما "المدموازيل" ترتان، كانت أسماؤهم مكتوبة على اللوحة من أجل تبرع هؤلاء الثلاثة بقطعة الأرض التي شُيد عليها المستشفى. لونيًّا، يتحد الغبار

مع عروق الرخام الأبيض المجلدة به واجهات المستشفى من الداخل. اجتزنا اللوحة الرخامية، مررنا على غرفة ممرضات يلبسن زيًا له غطاء رأس كبير كأذن فيل أبيض، يجوبون المكان ببطء، كانت تميزهن جميعًا بدانة مفرطة، تهتز عربة الأدوية التي يدفعنها فتتفكك أجسادهن بشكل غير أنثوي بالمرة، يتبعهن رجال تتوزع على ملامحهم صرامة بغير عدل، فالفم مبتسم وقرفان في الوقت ذاته، والعينان أيضًا، تضيقان بامتعاض ثم تبدو البصّة كأنها تأملات فكرية. كان بينهم رجل عجوز يبدو من تكشيرته أنه قائدهم، نجح الزمن في رسم "سنبوكسات" بالطول والعرض والورب على جبهته.

الطريق لم يكن طويلًا، ولكني كنت أتوقف أمام مشاهد تتميز بعشوائية كتلك التي تُنسج منها الأحلام، يبدو الشكل في الأول عَرَضيًا وغير مقصود، فأرى الطرقة الفسيحة وقد غطتها ملاءات ملوثة ترقد فوقها الممرضات لا المرضى، ثم أرى المرضى نائمين على البلاط ويتوسلون للأطباء، وأمرُّ بمرآة أرى فيها نفسي كأني كبرت بدون سابق إنذار، ولم أكن طفلًا في يوم ما، ثم يتشكل وعيي عن طريق حزمة أمنيات حددتها أمي، وبعد أن أصبح بإمكاني تحقيق ما أرادت ماتت، تركتْ لي الحيرة في اختيار أب يناسب طموحاتي وخيالي، وذلك بالتأكيد لأحل محل أبي الذي حل بدوره محل جدي. تركتُ المرآة أو تركتني، وتذكرتُ أني جئت إلى هنا باحثًا عن أبي.

كلما نظرتُ للساعة أم عقارب يدور بي الزمن لفة دائرية واسعة، أكاد أتوه من مركزه، أشعر باحتياجي الدائم لتواريخ

وأرقام حتى أتذكر الأشياء. رائحة الصابون المعطرة التي كانت تفوح من ملابسي تلاشت وحلت محلها رائحة عرق خفيف، سرعان ما أصبح لا يطاق مع الحركة المستمرة، وأسناني التي كانت تلمع، تذوقتُ طعم صدأها بطرف لساني.

ضوء بارد مسَّني، بالأدق، لسعني وأنا أسير بجوار حسن، كانت الشخصيات المتجولة من حولي تبهت، تغيب ملامحها وتتلاشى، كخطوط بيضاء مرسومة على ورق شفاف.

مررنا أنا وحسن على مغسلة كبيرة تغسل ما يُسبل على الأبدان، وبجوارها مغسلة أخرى لكل ما ترتاح عليه الأبدان، وبعد قليل قابلتنا الأبدان نفسها على هيئة بشر تغلغلت فيهم العلل المشكلة، تعشش الأمراض في خلاياهم، وتضعهم إرادة أشخاص غيرهم على حافة صندوق المغامرات.

وعدني حسن بأني سأتعرف على أبي بسهولة، وكنتُ أرى العكس، فالرحلة بدأت بطرح أسئلة كثيرة دون توفر إجابات بنفس الكمية، لم يمنعني ذلك من تخيل وجود بدن واقعي لاسم ظل يتردد بلا صدى لسنوات طويلة، سيصبح اسم أبي "سعيد إبراهيم" حقيقة لها لسان وقدمان، ذكريات وأحلام، في البداية، حدستُ المغزى الذي يمكن أن يطرحه الاسم.. سعيد إبراهيم، وأنا.. عمر سعيد إبراهيم، تأملتُ الاسمين، كان الأول ينتمي للماضي، والثاني الذي أُضيف اسمي في أوله ينتمي لي، يخصني بشكل كبير، هكذا رأيتُ اسمي الثلاثي، يمتطي أبي حرف الياء وهو ممسك بوتد الدال القصير، أما جدي فيتخفى بين دائرتي الهاء الصغيرتين وهو يرمق الألِف

بلؤم، بينما انزلاق الراء في اسم جدي يشبه الانزلاق في آخر حرف من اسمي. قبل استكمال تشكل الوعي سُبِلَ على كل واحد اسمه كملابس زائدة وانتهى الأمر.

طرقع حسن بشبشبه الزنوبة على البلاط، يبدو الصوت واضحًا كحدوة حصان تقرع الأسفلت. حاولت تجنب جميع الموجودين وعدم الانشغال إلا بالبحث عن أبي، تبخر المرضى والممرضات فجأة، ولم أجد في الطرقة الطويلة إلا أنا وحسن فقط.

دخلنا مكتبًا به دفاتر متراكمة ومتربة، وأمام تل ملفات رجل يضع خلف أذنه قلمًا بدون لبيسة، تتخفى ملامحه تحت نظارة كبيرة، عدستاها في حجم علبتي تونة، التفتُ لحسن، عندما رآه وقف وفي يده بقايا ساندويتش فول، وفي عروة قميصه تلبد حبة سليمة لها ذيل من طحينة، ثم قال:

-أي خدمة يا حسن؟

-اكشف لي عن اسم سعيد إبراهيم.

تناول الرجل دفترًا بيده المتوقفة عن رفع الساندويتش، أخذ يفر صفحاته بيد، ويده الأخرى تضع طرف الساندويتش تحت أسنانه، توقف عن المضغ وتأمل الاسم مرارًا ثم نظر لحسن بشكل مرتبك وأغلق الدفتر. فسأل حسن الرجل:

- الاسم مشطوب؟

- نعم.

- كُله؟

- باق حرفان فقط.

أطـرق حسـن قليـلًا كأنـه يتأمـل حـذاءه، ثـم خـرج، مشـيت خلفـه وسـألته:

- هل عرفت أبي؟

- عرفته.

اجتزنـا الممـر الطويـل في الاتجـاه العكـسي، وقبـل أن نصـل للعنـبر بقليـل سـألني حسـن إن كان قلبـي جامـدًا؟ فأجبتـه بـما يسـمح برسـم صـورة أفضـل عنـي في مخيلتـه، ولمـا أصبحنـا أمـام العنـبر قـال حسـن: أبـوك هـو أول سريـر وأنـت داخـل العنـبر عـلى الشـمال، وقبـل أن أخطـو خطـوتي الأولى جذبنـي مـن ذراعـي وقـال:

- ولكن تذكر.

- أتذكر ماذا؟

- لقد قلت أن قلبك جامد.

* * *

لم تعـد جدتـك في حاجـة لمسـاعدة، فالكلـمات التـي قالهـا الرجل المسـن لم يكـن لهـا إلا معنـى واحـد تقريبًـا، أنهـا سـتحزم أمتعتهـا قريبًـا وتصعـد حيـث المسـافات التـي لا يمكـن قياسـها، أصبحتَ عـلى أتـم اسـتعداد لاحتضـار جدتـك، لم تكـن تخشـى المـوت، فهـو غـير مُعـدٍ، كنـتَ تسـاعدها عـلى اجتيـاز مرحلـة الاحتضـار، تتعـاون معهـا في ذلـك قـدر اسـتطاعتك، اشـتريتَ لهـا الكفـن ووضعتـه في الـدولاب، ولكنهـا فـور رؤيتـه أحضرتـه ومزقتـه أمامـك وقالـت:

-لـو جئـت بهـذا الـشيء هنـا مـرة أخـرى فسـأكتب عليـه

اسمك بالحبر الأحمر.

اشتريتَ لها كفنًا آخر، لففته في مصلية مركونة في الدولاب. لما تأكدتْ من أنكما تأخذان التدابير توقعًا لموتها أصبحتْ أشد شراسة، تحولت معاملتها لشكل شبه عسكري، تُلقي أوامرها على مسامعكما ولا تقبل إلا الطاعة العمياء:

حط الحصير في الشمس.

حاضر.

لم البيض من تحت الدجاج في العشة.

حاضر.

ارم قشر البطيخ للعنزة المربوطة.

حاضر.

تمل من الرد المستمر بكلمة واحدة:

حاضر. حاضر. حاضر.

كلمة تيبست في فمك، لا تناسب الطاعة بقدر ما تناسب رغبتك في صمت جدتك نهائيًا، في غلق فمها المظلم للأبد. موافقتك على كل طلباتها المجهدة لم تجعلها هادئة، كانت ردودك متسامحة برغم صوتها المرتفع، فعندما تصيح كانت تفقد السيطرة على ضبط مستويات صراخها، وكان من المزعج أن تحدثك بصوت هادئ وقور ثم يعلو فجأة فتنفلت أعصابك بلا تحكم.

أحضرتَ لها طبيبًا ليكشف عليها، لم يكن دافعك هو الحفاظ على صحتها، ولكنه الهاجس من تأنيب الضمير إذا ماتت، وأصبح من المستحيل عودتها مرة أخرى، قال لك

الطبيب وهو يُعبئ ساعته وجهاز الضغط في حقيبته السوداء:

-جدتك في طريقها للجنون.

في البداية، فاجأتك الكلمة صاحبة التاريخ السيئ، حاولت أن تبدو بمظهر الكبير الذي سيتحمل المسؤولية في جميع الأحوال، فسألته:

- وفي أي مرحلة هي؟

رد وقد أتم تعبئة أجهزته:

-في مرحلة الرقص على السلم. ولكنها صاعدة للنهاية لا محالة.

بعد يومين تقريبًا كانت تصرفات جدتك تسير في نفس الاتجاه الذي حدده الطبيب سلفًا، أصبحتْ تتشاجر لأسباب تافهة، كأن تبحث عن شبشبها فلا تجد إلا فردة واحدة، أو تقضم صدغها من الداخل أثناء الطعام، صارت العيشة معها مستحيلة، خاصة وأنها تأتي بتصرفات عصبية لا يتحملها شخص طبيعي.

فكرت في شيء جديد، لماذا لا تفك ذراعيك وذراعي أمك، ولماذا لا تقنع جدتك بأنه يجب على كل إنسان أن يكون له ذراعان إلى جوار القدمين؟ وأنه لا يمكن أن يعتمد إنسان على جسده الناقص في الوقت الذي ينشد فيه الكمال، كان اعتراضها على وجود أذرعكما لا يتوافق مع حرية ذراعيها هي، إذ إنها كانت تأكل بيدها، وتمشط شعرها الجعد الملبد، وترمي بالخبز الناشف لعنزتها المربوطة في المنور، ولكنها برغم ذلك كانت تريد منكما أن تسفا التراب.

حدث تحول في رغبات جدتك مرة واحدة بدون تدرج، لم يُرض نزواتها تخبئة أياديكم عن عينيها، ولكنها خرجت للشارع في سهو منكما وهي تربط شعرها لفوق كشوشة كوز ذرة، كانت تركض خلف أي ذراع تراها، تقضمها أو تكاد، سال لعابها في خيوط شفافة لا تنقطع، خاف منها من خاف وهرول من هرول، كانت هناك قلة واجهتها وأوقفت جنونها الزاحف، أجلسوها فوق مصطبة وأوثقوها بالحبال، ظلت تصرخ كوحش هرم يرفض مصيره المحتوم، لم يعد فيها من نشاط إنساني إلا هزات تشبه التشنجات وصرخة واهنة لا تنقطع، تبيض عينها ثم تصمت، ولا يتحرك فيها إلا ننسي يروح ويجيء كبندول الساعة.

بعد أن هدأتْ جدتك تذكرت كل ما مر بها كأنه شريط ممزق تقفز فوقه كائنات طفيلية، تنمو فيه الأحداث وتُنفخ الروح. فبعد أن أوثقوها وكموا فمها همد جسدها وأصابها الخدر، ولما فكوها أخذت تصيح:

- هُمّ ولاد الكلب سابوا لولاد الحلال حاجة؟

لم يرد عليها أحد، لا بد أنهم أدركوا استعدادها الفطري للخرف، عادت جدتك للبيت، ورجعتْ لسيرتها الأولى، ازدادت نهمًا وشراسة في مطاردة الأذرع المتطوحة أمامها. هرمتْ كثيرًا بعد هذه الأحداث، نما لها شاربان تحت أنفها يمكن لضعيف النظر أن يراهما بسهولة ويعد شعيراتهما المتصبة.

وبعد حيرتك لأيام تستدعي طبيبًا آخر، ربما يعرف لها علاجًا يريحها، ويريحكما، قال وشعره المصبوغ يتطاير من

مروحة السقف إن حالة جدتك متأخرة جدًا، ومثل هذه الحالات لا بد أن تأخذ تأشيرة الاحتضار، برشامة مُركزة أو حقنة تُخلصها من الآلام، وتخلصكم، وذلك بالاتفاق مع العائل المسؤول عنها، رفضتْ أمك المبدأ، ورفضته أنت أيضًا.

اقترحت أمك أن تغلق عليها غرفتها حتى تقل الخسائر، ولكن ذلك لم يردعها عن الركض خلف أي ذراع تقابلها وقضمها، بل وتكسير غرفتها أيضًا، كانت جدتك ترى في أطراف البشر فوائض عن الحاجة.

وبذلك فشلت الخطة الأولى لأمك، أما خطتها الثانية فكانت شَغلها الدائم بأشياء غير معتادة، كأن توكلا إليها مهام لم يسبق لها أن فعلتها من قبل، مثل رتق الملابس أو الجلوس بين الدجاجات للم البيض أو تكويم الزبالة في شنطة سوداء، وبرغم أنها مهام صعبة بالنسبة لهشاشة الحالة الصحية لجدتك، فإنها كانت تفعلها بامتياز دون مساعدة من أحد.

أما المرة الثالثة التي كاد فيها الطبيب أن يسب لمن خلفوكم فكانت منذ أيام قليلة، وقف الطبيب ورفع جلباب جدتك للكشف عليها، كان بطنها مجعدًا ويظهر قفصها الصدري كمضرب بيض، من كثرة التجاعيد كنت تشعر بأن أمعاءها مكشوفة لا يغطيها جلد، طال بها الزمن أكثر من اللازم فأصبح متناقضًا، تصطدم فيها الصبية التي كانت بكائن لا يعرف بالضبط ما يريده من الدنيا. كانت جدتك تحاول دائمًا أن تثبت لكما أن العيب في الزمن وليس فيها. وأن كل

شيء سيصير على ما يُرام، فالأرض تدور كالعَجَلة ويمكنها استعادة أي شيء. وإمعانًا في إثبات ذلك كانت تحوم حولكما بخطوات أسرع مما اعتادت، فيلقي ذلك في قلبك الرعب، والحذر. لأنها فجأة تتخلى عما اعتدتَ أن تراه، تتجلى أمامك بهيئة مريبة، وربما منفرة.

جذبتْ جدتك ساعة الطبيب الفضية في سهو منه ووضعتها على أنحاء متفرقة من جسدها، ثم استقرت الساعة على بطنها وقالت موجهة كلامها للطبيب:

-حمرا ولا قرعة يا دكتور؟!

هنا أدركتما بأنها مجنونة، ولا داعي لأي مواربات قد يخسر بسببها الجميع.

-٣-

لم تخفني كلمات حسن بقدر ما أخافتني نظراته الحادة، دخلتُ العنبر وعبرت كل الراقدين، رأيتُ بعض الزجاجات الفارغة ملقاة تحت الأسرة وبجوار الجدران، وبقع دماء ناشفة تبرقش الملاءات، عندما سألتُ عامل النظافة عنها قال إنها بوية حمراء لترقيم الفرش، كان الراقدون صامتين تقريبًا، عدا واحد يتكلم بصوت خفيض، وآخر يبتسم استعدادًا لضحكة، أما غير ذلك فعنوان العنبر هو الصمت المطبق المخيف. تعرفت على أجواء العنبر والأسرّة أولًا قبل أن ترسو عيني فوق السرير الذي قال حسن إنه يخص أبي. كانوا ثمانية أسرّة، مفروشة عليها ملاءات كالحة، وفوق الملاءات يرقد مرضى من كل الأعمار والأمراض، وبين كل سريرين كومودينو محطوط عليه زجاجات مياه وعلب عصير وأطباق فارغة وسرنجات.

أحيانًا أدّعي الصبر ولكني في الحقيقة لا أمارسه، وأشعر طوال عمري بأن حرف الصاد في كلمة الصبر مغلق على تمنيات وهمية مفترضة، وعدم وجود نقط فوقه أو تحته لهو دليل على وحدته وانتظاره لشيء لن يأتي أبدًا.

جاءت اللحظة الفارقة التي سأتعرف فيها على أبي. ولكن لماذا أثق في كلام حسن؟ هل أعرفه من قبل؟ لماذا لا يكون غشني وضللني؟ على العموم، لن أخسر شيئًا لو بحثت وسألت، لا بد سأعرف أبي أو يعرفني، فهناك مشاعر وكيمياء

لا تستطيع الكلمات وحدها التعبير عنها.

أول ما وقعت عيني على سرير أبي لمحتُ بطانية متهتكة النسيج وشريطها الساتان مهلهل، كانت البطانية كأنها ملتصقة بالسرير ولا شيء ثالثا بينهما، هل كان أبي نحيفًا إلى هذا الحد؟ على العكس من ذلك، كان عريضًا ومهيب الطلة، توحي هيئته بالوقار، هكذا وصفته أمي. وأيَّد وصفها أنني عندما وصلت لأول السرير رأيت رأسًا سمينًا ينام على الوسادة ويغط، يخبئ شعره بزعبوط مقلم من القطن. سَرَتْ رعشة في بدني عندما تأملت ملامحه، فقد كان بالفعل يشبهني، جلست على حافة السرير وقربت وجهي من وجهه، علهما يجدان عنصرًا مشتركًا يفصل في الأمر. توخيت الحذر من أن تكون ذخيرتي في التعرف على أبي هي فقط مجموعة مشاعر متأهبة لاستقبال أثير من أي شخص والسلام، كان الفصل بين الأحاسيس أمرًا صعبًا للغاية، ولكن هذه مهمتي التي أتيت من أجلها، والتي أوصتني بها أمي وهي تحتضر، فكان لا بد أن أتعرف على أبي بأي طريقة لأريحها في نومتها الأبدية.

اقتربت امرأة بدينة وملثمة، تلبس ثياب الممرضات، رمت على سرير أبي كيسًا به برشام فرط وسرنجة وأمبول حقنة بني، بعد دقائق قليلة مرت امرأة أخرى أشد بدانة وتخبئ وجهها أيضًا وتلبس زي ممرضات غريبًا، سُترة بيضاء واسعة الصدر مشمرة الأكمام حتى الكوع. رمت على سرير أبي كيسًا به قطعة جبنة نستو وبيضة مسلوقة ونصف رغيف، وجهتْ كلامها لأبي برغم تخطيها الفعلي لمجاله:

- حصتك يا عم سعيد.

قالتها بميوعة لا تناسب شكلها، خرج النداء من طبقة أحبال صوتية مرققة. كان أبي لا يزال نائمًا، أتابع في الرأس النائم ملامحه، كان حاجباه كثيفين وله شاربان أبيضان عريضان كجزء مقطوع من ذيل قط، وعنقه مليء بتجاعيد تناسب سبعين عامًا وليس فقط خمسين، أول ما اقتربت منه فتح عينًا واحدة ثم أغلقها على ملامحي وعاد مرة أخرى للغياهب. كان يحرك رأسه يمينًا ويسارًا بحرية كبيرة، دون اضطرار باقي جسده لمجاراة اتجاه الحركة. فتح عينيه الاثنتين بعد قليل وسألني:

- من تكون؟

- أنا ابنك. أنا عمر سعيد إبراهيم.

قلتها وانتظرتُ مشهدًا عاطفيًا ملتهبًا كما تتصوره ذاكرتي من خليط أفلام السينما التجارية، لكنه لم يحضني ولم يقبلني، بل لم يلتفت لكلمة "ابنك" من أساسه. كانت تبدو على ملامحه علامات التعب والإرهاق، كأنه أتى مشيًا من كوكب بعيد. تحول أبي من شخصية اخترعتها لإنسان أعرفه وأقف أمامه، فقد كان حتى الأمس فقط مجهولاً بالنسبة لي، مع الإلحاح والتكرار، كان لزامًا عليّ وعلى أمي أن نُكمل طريقة اختراعه، فأثناء طفولتي البعيدة، أيام أن أصبح باستطاعتي شد ذيل قطة ومناجاة عصفورة، كنتُ أرى أبي مغزولًا من ضفائر في الهواء، مُعلَّقًا، كشيء معنوي خيالي.

حاولت أن أشعل انتباهه بإخراجه من حالة السكون هذه، فقلت له دون أن يسألني:

- أمي ماتت.

رد بعد مدة طويلة:

- لذلك أصبحتْ تأتي في أحلامي كثيرًا.

- أحلامك؟

- تُعوّض المسافة.

ردوده المقتضبة جعلت التواصل بيننا صعبًا، أصبح من المفترض أن أبادره أنا بالكلام كلما انتهى من رده، كان صوته ينسلخ فجأة عن المشهد، فلا أعرف هل العيب في حنجرته أم في حاسة السمع لدي، انتظر أبي كثيرًا حتى قال:

- أنت على قيد الحياة فقط عندما يكون هناك أشخاص يسألون عنك.

جذبني حسن بذراعه القصيرة العفية من على السرير، اقترب ناحية أبي وهو يوجه إليّ كلامه:

- جاء وقت الأشعة. سآخذ منك أباك لدقائق.

رفع حسن البطانية مرة واحدة عن أبي. عن أبي.. أين أبي؟ أخذ حسن أبي تحت إبطه، حسن القصير جدًا، بذراعه التي هي في طول زجاجة، ضم أبي أنا تحت إبطه وخرج، فقد كان أبي، أبي أنا. مجرد رأس، رأس فقط!

* * *

بعض تغيرات جسمانية طالت جدتك نتيجة تشنجاتها التي لا تنتهي، أبرز التغيرات كان عطبًا محدودًا في عمودها الفقري، فأصبحتْ لا تقوى على النهوض بدون مساعدة، ومع تكرار المساعدات، كانت تكدر من يمد لها يده، فلا بد ستطوله

شتمة فوق البيعة. ربطتْ لها أمك حبل كتان في سقف الغرفة، كانت تمسكه كلما همت بالقيام، فالحبل لن يلتفت لسبابها في كل الأحوال.

لم يردعها الوهن عن هوايتها العجيبة، في البداية، كانت أعصابك تنفلت لأتفه الأسباب، ثم حاولتَ بعد ذلك أن تشرح لجدتك فوائد الذراعين، وكيف أن بدونهما لا يمكن أن تكونا بشرًا، أوضحت لها الاستخدامات عمليًّا، فأحضرتَ رحايا صغيرة في حجم الكف، كانت مخصصة لطحن البن، ورثتها جدتك عن أمها، أمسكتَ بمقبضها وأخذت تلف دائرتها الحجرية أمامها، لم يخرج رد فعلها عن ضحك متواصل لا معنى له. حاولتْ أمك أن تريحك من العناء وشيل الهم، فقامت هي بتكملة الشرح لجدتك، وبكل الرقة الممكنة بدأتْ بالكلام عن الفوائد الجمة للذراعين، عن شرب الشاي تحدثتْ، وقتل الصراصير والتشطيف في الحمام، وأضافت، الذراع تُكبِّر تسند على الأرض وتسجد، والأصابع تُسبح، لم تفز أمك بعد مجهودها الذهني إلا بمصمصة شفاه وضحكة واهنة وكلمات غير مترابطة قالتها جدتك:

-أنتم مثل الوز حنية من غير بز.

لم ترد أمك، ولكنها تحضن جدتك بحنية زائدة، سرعان ما تذوب المشاعر المتناقضة وترسو الموجة على مؤشر الشِجار من جديد. تفتح جدتك فمها الشاغر إلا من ناب واحد حفر مكانه في لثتها الوردية، أحيانًا تبدو بطيئة في نطق الكلمات، وأحيانًا تتكلم وكأن أحدًا يطاردها. لما اشتد أوار المشاجرات رفضت جدتك الاستحمام على يد أمك كما جرت العادة،

كان وكأنه تهديد أو حرمان من امتياز ما. تكونت مع مرور الأيام حول عنقها وداخل صوان أذنها دوائر سوداء كالفتل، كانت تفركها عندما تتعصب ويتملكها الغضب. تحولت جدتك في مخيلتك من كائن يمكن لمسه والحديث معه إلى شبح خارج من بقايا كابوس.

توقفتْ برغبتها عن الكلام، ليومين كاملين ظلت صامتة، كنوع من توجيه العقاب لك ولأمك، ولما عادت الحياة مرة أخرى لأحبالها الصوتية سمعتَه ليس بصوتها، كانت وكأنها استعارته من امرأة أخرى تشبهها.

نصحكم الأطباء المتوالون على علاجها بالحل الأخير، أن تذهب لمصحة نفسية، لم تكن المشكلة في أن تصبح جدتك نزيلة مستشفى للأمراض العقلية، بقدر ما كانت المعضلة الحقيقية هي مواجهة الناس بذلك. وصلها الخبر برغم حرصكما أنت وأمك على عدم إخبارها، تخلت إرادتها عنها، تحولت لطفلة تبكي وتبحث عن صدر ترتمي فوقه. تبلدت مشاعرها وعادت كما كانت مسالمة ووديعة، رغبة منها في عدولكما عن فكرة ذهابها للمستشفى. اقتربتْ من أمك وهي تحاول تقبيل يدها:

- يدك أقبلها. أقبلها واتركاني. المستشفى لا. لا وحق جاه النبي.

سحبت أمك يدها في الوقت المناسب وجذبت جدتك النحيفة واحتضنتها، غاص الجسد الضامر بين طيات جسد أمك المتماسك إلى حد ما. نام الجسدان المريضان وأصبح عليك أن تخط ذكرياتك التي بدأت تتشكل في هذه اللحظة.

أدركتْ أمك بغريزتها أنها لو صممت على ذهابها للمصحة النفسية، سيعلق مشهد أمها وهي تحاول تقبيل يدها في ذاكرتها للأبد، ففضلتْ على ذلك محاولة إصلاح ما فسد في عقلها اجتهادًا. وضعتْ أمك خطة مُحكمة لتقليل الخسائر، تتلخص في متابعة جدتك طوال اليوم على شكل ورديات، أنت نصف اليوم وأمك النصف الآخر، وتكون وظيفتكما هي ملاحظة أي تغيرات في طبيعة تعاملها مع الأشياء، أصبحتْ جدتك شبه طبيعية بعد جرعة الحنية التي منحتها لها ابنتها، حتى لقد بدتْ لمن يراها أنها شُفيت من دائها، شفيت تمامًا.

بعد أقل من أسبوع كانت جدتك تلحس قعر حلة أرز باق منذ يومين، وفي عينها تلك النظرة الغريبة التي كانت تنظر لك بها وهي تحاول قضم ذراعك. هي لم تعد لملاحقة الأذرع المتطوحة في الهواء، ولكنها كانت تمضغ الأكل بطريقة متوحشة، وعندما اقتربت من الحلة شعرت وكأنها على وشك افتراسك، كنت تبعد يدك عنها بسرعة وحذر، وتراها على هيئة وحش جائع جاء من مكان بعيد ليلتهمك.

تحصنتْ جدتك طويلًا في قلاع سنها، فهي تعرف جيدًا أن امرأة تناهز الثمانين لا يمكن أن يعترض أحد على تصرفاتها، وأنه لا بد من معاملتها كطفل مدلل له كل الحقوق. كانت تستغل هذه المزايا بكل قوتها ما أمكن، وتنحدر نحو الجنون في خطوات منتظمة، كنت تتحسس دماغك وتتأكد أن تحت طاسته يرقد مخك في سلام، تخشى من كثرة معاملتها أن تُحلق عقلك بعيدًا عن مكمنه، فقد كانت ترهقك بطلباتها التي لا

تنتهي، وتتحول ملامحها إلى تركيبة فريدة يصعب فهمها عندما تتحكم فيها شهوة الطعام، كانت تلتهم أكياس المقرمشات وهي مقرفصة وضفيرتها النحيلة تهتز كحبل قصير فوق كتفها، ورأسها به شعيرات مجعدة ومتفرقة، تبان بينها بُقع وردية مقززة. بسبب نحافتها وضعفها كنت ترى جمجمتها تحت الجلد كما لو كانت صندوقًا ينفتح وينغلق مع حركة فكيها. ثم تتحول تعبيرات وجهها مرة أخرى إلى تقلصات تستحق التأمل، وتقول:

– بعد كل ما فعلتماه. ماذا تريدان مني يا غجر؟

تطور الحوار إلى أن تحدثت جدتك أخيرًا عن الأسباب التي دفعتها لقضم أذرعكما، شرحتْ لأمك بصوت خفيض عن هواجسها، قالت إنها لا تريد التخلص من الأطراف المترنحة إلا من أجل الله، وكان غريبًا أن تتذكر جدتك الله في أمر كهذا، فهي لا تصلي ولا تصوم، لم ترها ولا مرة واحدة تتوضأ أو تجلس على سجادة أو تحمل مسبحة، حتى لفظ الجلالة لا تأتي سيرته إلا في الأمثال الشعبية فقط "الله جاب. الله خد. الله عليه العوض". واصلتْ شرحها للمسألة من وجهة نظرها، كانت ترى في اليدين بكل مشتملاتهما سببًا قويًا للبطش، فالذراعان هما من تمسكان بالبنادق والسكاكين، والأصابع تُسهل الضرب والخنق. تدخلت في الحوار وقلت لها إن الذراعين أيضًا يقومان بالعمل، يزرعان ويصنعان، وكانت غلطتك الكبيرة هي تدخلك في حوارهما، انتفضت جدتك وثارت، وجذبتك أمك خارج الغرفة الصغيرة وقالت بصوت جاهدتْ لكي لا يصل لجدتك:

-كانت على وشك التبرير يا حبيبي. والتبرير يريح قائله. لقد أفسدتَ كل شيء.

حاولتْ أمك بعد ذلك استفزاز وساوس جدتك الدينية، ونجحت إلى حد ما، تكلمتْ جدتك عن سبب غضبها من ترنح أي ذراع تراها في الهواء، حتى ذراعها هي عندما تلمحها في المرآة، وتكلمت كذلك عن الرغبة التي تتملكها في قضم الأذرع لطرد الشر.

عندما تُقرب أمك وجهها من وجه جدتك كنتَ تشعر بأن الزمن يتأرجح بين ملامحها، مرة مندفعًا للأمام ومرة منسحبًا للخلف، تُقبل جدتُك أمك، فتطقطق بفكيها طقطقات منتظمة تحملك على النوم. تصحو فتجدهما تتبادلان الحكايات والضحكات، تغفو جدتك بين ذراعي أمك، تبدو كطفل أنهكه اللعب، تفتح فمها، تتحرك سنتها الوحيدة وتدق لثتها ببطء، تحملها مع أمك كمرتبة تَوزع قطنها بغير عدل، تسحب أمك عليها الغطاء وتخصك بحديثها الذي يصلح لإنهاء اليوم:

-كلنا محتالون يا حبيبي. محتالون ونزج بلفظ الله في أمور لا تناسبه في الغالب. دع جدتك تأخذ نصيبها من الاحتيال.

– ٤ –

كما تتلاشى الصورة في فيلم السينما وتحل محلها صورة أخرى جديدة كان إحساسي، خرجتُ من الواقع بطرف خيال بارق، ودخلت عالمًا آخر مليئًا بدخان ضبابي وأبخرة ملونة، كنتُ أتخيل أن الأشياء السيئة تحدث فقط للآخرين، ولما اكتشفتُ أنها يمكن أن تحدث لي كان يجب عليّ أن أفعل شيئًا، لا أعرف ما هو هذا الشيء الذي يتوجب عليّ فعله، ولكني برغم ذلك ظللتُ أقول لنفسي: "يجب عليك أن تفعل شيئًا يا عمر".. حمّسني سماع اسمي لفعل ذلك الشيء المجهول.

كنتُ كمن وقع في فصل من رواية وأصبح شخصية تتجول على ورق، في لحظة واحدة، مرت أمامي الصور الوردية التي رسمتها لأبي، حتى في أسوأ التصورات لم يخرج في خيالي عن شخص نكدي كئيب، أو شخص غير وسيم بالمرة، توقفتْ تصوراتي الخيالية واصطدمت بواقع لا يمكنني إلا التعامل معه بجدية. حاولتُ أن أبدو أقل خوفًا، ربما جعلني ذلك أبدو خائفًا بشكل أكبر.

كانت الحياة تسير وفق منهج معد سلفًا، تكدستْ الأحاسيس المريرة كلها دفعة واحدة أمامي، هُيئ لي بأني أنام خامدًا فوق سرير تمدني ملاءته بأحلام متوالية، فيها مرتع لاختلاط المشاعر الغامضة، كأني أبحث عن بلد مجهول، أحاول استكشافه وفي يدي خريطة بدائية، أرى الناس من حولي يتحركون كشعيرات صغيرة تتحول بسرعة إلى ضفيرة.

كنتُ كمخرج اخترع شخصية ثم وقف أمام تصرفاتها عاجزًا لا يستطيع تعديل مسارها، فأصبح فقط يتابعها وهي تواجه مصيرها.

شعرت بأن أبي لم ينجبني، وأني ما زلت ماء يسري في أوردته وحلقات عموده الفقري، وكأني شيء يحتمي بمكمنه البعيد. في تلك اللحظات كنت أود تدوين بعض الملاحظات حول المستشفى، كنتُ أحمل دفترًا صغيرًا مليئًا بالهوامش، حتى الملاحظات التي تبدو تافهة، لم أكن أفوتها، فالتذكر هو مادة الفن. مرت ذكرياتي كشريط سينما تالف، نبتت التصورات كما كنتُ أحفظها في ملفات رأسي. وقفتُ أحدق في الرأس وأتخيل، أرمم الصورة ليبدو أبي أمامي إنسانًا كاملًا، كنتُ أشبه شخصًا جاء للإغاثة، ودون أن يدري أصبح في أمس الحاجة لمن يغيثه. بعد أن تشبعتْ عيني بالصورة وتأكدت من أنها هي الحقيقة وليس أي شيء آخر؛ انطفأت بعض المصابيح في دماغي، لانت حدة الأفكار عندما اقترب مني حسن، زمّ ملامحه فانغلقت عينه الحولاء وتواربت السليمة، ولم يتكلم.

كان هناك سرير خال بجواره، تمددتُ فوقه ونمت، رحت في حلم تشابكتْ أحداثه سريعًا، رأيت ثلاث دجاجات سوداء تنقي من الأرض دودًا أبيض، وبعد هضمه جلست الدجاجات تستريح وهي تهضم الوجبة في كسل، وبعد أن تحول الدود الأبيض لجزء من كيان الجسد الأسود بحثت الدجاجات عن المزيد من الطعام، لم يكن أمامها إلاي، وبرغم كونها دجاجات تافهة وعبيطة، فإنني منها ركضت، وقبل أن تلحق بي شعرتُ بوخزة خفيفة في ذراعي، لما أفقت وأدركت

وجـود الدجاجـات في كوكـب آخـر أخـذتُ أنـادي أشـخاصا في مدينـة بعيـدة ومجهولـة، ولمـا اسـتقرت روحـي رأيـتُ حسـن. نظـرت بجـواري فلمحـتُ أبي نائـمًا كـما هـو، أو بـالأدق رأسـه نائـمًا.

كان حسـن يُطعمـه قطعـة جبنـة نسـتو، وضعهـا في فمه مـع لقمة صغـيرة، مضغهـا عـلى مهـل وهـو يتأملنـي ويُضيّـق عينيـه، كان يضغـط بنواجـذه عـلى اللقمـة ثـم تنقبـض تفاحـة آدم وتتأرجـح صعـودًا وهبوطًـا، تتقلـص ملامحـه وتتعـرق إلى أن ينتهـي مـن اللقمـة، فيـدس الأحـول غيرهـا. اسـتفسرت مـن حسـن:

- منذ متى وأبي على هذه الحال؟

رد أبي الـذي سـمع سـؤالي وكان عطـر مـا بعـد الحلاقـة يفـوح منـه:

- هل حولتني أمك لحكاية واحدة أم إلى عدة حكايات؟

لم أرد، ولكن حسن رد بعد أن زرّ عينه الحولاء:

- عرفته هكذا.

نظر إليّ أبي وقال وكأنه لا يوجه كلامه لشخص معين:

- كانت مثلك تحب الأسئلة.

ولما خمنت بأن السؤال يخصني تجاذبت معه أطراف الكلام:

- من تقصد؟

- أمك.

لمحتُ تحت سرير أبي حذاء أحمر، ماذا يفعل بالحذاء؟!

صمـت حسـن قليـلًا، اعتـدل في جلسـته عـلى حافـة السريـر

وكأنه يستعد لقول شيء مهم، ثم تحدث عن أبي وهو ينظر إلى ملامحه، قال إن أبي هو الوحيد الذي رفض الانتقال إلى مستشفى آخر، ثم رفض كل ما قرره المدير على النزلاء، لم يترك سريره عند سماعه الشعائر التي تنطلق من المئذنة الصغيرة المطلة على نوافذ العنبر، وأضاف حسن أن أبي كان عندما يسمع النداء يغطي وجهه بالبطانية، فيمر رجل مهيب الكرش والردفين، تبدو على ملامحه الصرامة وتنفيخة النعاس، يضرب بعصا خيزران كل البطاطين المفرودة ومن تحتها الأبدان، ثم يضرب بعد شد البطاطين الأبدان نفسها، كانوا كلهم ينصاعون إلا أبي، لم يؤثر فيه ترغيب بالجنة أو ترهيب من السعير، كان رفضه نابعًا من عناد وإصرار طبيعيين في شخصيته أكثر منه رفضًا لأسباب النزاع، بدأ الرجل مهيب الردفين أولًا بلعبة الترغيب، فوصف تغريد البلابل صباحًا على أن الطير تبحث عن رزقها، وهكذا البشر أيضًا، لا بد أن يبحثوا عن أرزاقهم وعن خالقهم، فقال أبي العنيد أنها ليست بلابل، بل عصافير متشردة تنعق بصوت مزعج يجلب الضجر، وأنها لا تبحث عن رزقها، وإنما تطير فحسب، مثلما يمشي البشر وتركض الوحوش وتزحف الديدان، ثم أضاف:

- انتهى الأمر ولا بد الآن أن تنصرف.

ولم ينصرف الرجل الذي تقوَّس شاربه وقبَّت لحيته للأمام من فرط الغضب. ولكنه ذهب مباشرة للمدير الذي أمر بدوره بعقد مجلس الأحكام.

وقف الرجل مهيب الردفين في يوم جمعة، خصص الخطبة كلها عن أبي، أضاف بين كلماته بعض التوابل اللغوية لإثبات

وجهة نظره. بعد انتهاء الشعائر خرج الحراس قاصدين عنبرًا واحدًا، وقاصدين سريرًا بعينه، هو رقم 1، الذي يرقد عليه أبي، اقتادوه للفِناء وأوثقوه بالحبال في عمود إضاءة كريتال بجوار منزلق مخصص للكراسي المتحركة. بدأ الرجل مهيب الردفين بتلاوة بعض الأسئلة على أبي لكي يبدو أقل قسوة أمام الجموع المتحفزة. ولم يرد أبي على أي من أسئلته، فتبرع ثلة من الحراس لمساعدة الرجل مهيب الردفين، أخرج أحدهم ورقة بها أسئلة جديدة ومد يده بها للمحقق، كانوا في شبه غيبوبة، يتمايلون ويهدرون.

رأيتُ المستشفى بالكامل وقد أصبح امتدادًا لعنبر أبي، بل امتدادًا للسرير الذي يرقد عليه. دارت في رأسي بعض الأفكار المبتورة، لم أستطع الإمساك بواحدة، خمّن حسن ما يدور داخل رأسي، فقال وهو يرسم على ملامحه عبارة تهكم طويلة:

- لا تخف. هم لا يمسّون الزائرين.

وقبل أن أفكر في رد مناسب أضاف حسن:

- ولكن من يدري. فقد كنت أنا زائرًا منذ شهرين، ثم تحولت الآن إلى نزيل.

* * *

أصرّ الطبيب على ذهاب جدتك إلى المصحة، فحالها هناك ستكون أفضل، ورضيتِ أخيرًا بالمكتوب، لم تقل لها أمك إلى أين بها ستذهبان، فقط قالت جملة لا معنى واضحًا لها:

-تعالي نشم حبّة هوا.

انصاعت جدتك بدون مقاومة وملامحها غير مطمئنة لمسألة شم الهواء، هي تعرف جيدًا أنها لا تخرج من البيت إلا للعلاج، وتعرف أيضًا أن المرة التي لن تخرج فيها إلى الطبيب ستتجه إلى القبر، كانت قد استسلمت كثيرًا عن ذي قبل، باتت راضية بالقدَر بشكل كبير، أو بتعبير أدق، أصبحت لا تقوى على المقاومة كما كانت منذ أيام قليلة. سألتْ جدتك سؤالًا لم تجد أمك عليه ردًا:

-لماذا تجمعين ملابسي كلها ما دمنا سنشم الهواء فقط؟!

وعندما تلعثمت أمك في الرد زامت جدتك ومطت شفتيها للأمام، وساد المشهد صمت مريب. رأيت جلد جدتك مكرمشًا وبه لمعة منفرة، وعروق خضراء نافرة كأنها ملّت طول الحبسة فكادت تفط للخارج، أخذتْ جدتك تتضاءل أمامك حتى هُيئ لك اختفاؤها، وكأنها كانت فقاعة أو خيالًا أطاعت أمك وهي تغيّر لها ملابسها، وكأنها تحولت لدمية لا حول لها ولا إرادة. كانت ضعيفة جدًا ونظرتها باهتة، عندما تأملتَها تخيلت أن عينها ابيضت واختفى منها النني. أصبح لونها كبيضة مسلوقة. رشّت أمك تحت إبط جدتك بختين من زجاجة عطر قديمة على شكل تمثال، وتتأفف جدتك، لا من الرائحة، ولكن من التوجس.

جاءت السيارة الأجرة لتنقل جدتك كيفما اتفق، بدت عظامها بالنهار أكثر بروزًا وضعفًا، وبينما أنتم سائرون في الطريق طلبتْ منكما التوقف، فركن سائق السيارة على جانب الطريق، نزلت جدتك وجلست على أريكة في

الشارع، ظلت تتأمل المارة بنهم، تضيق عينيها أمام أي ذراع تراه، خاصة تلك الأذرع العارية، تتأمل البنات الصغيرات اللاتي يتجولن ويلعبن، أشعل السائق سيجارة وجلست أنت بجوار جدتك، وقفتْ أمك تضع سبابتها وإبهامها فوق شفتيها، وفي محاولة منها لمواساة جدتك تقربت منها وقالت كلمات عن النصيب والقدر وأن ربنا كبير وأشياء أخرى من هذا القبيل، ردت جدتك بكلمات غبية وغير شاعرية بالمرة من نوعية ربنا يقصف عمركم، يا رب أشوف فيكم يوم وأمشي في جنازاتكم كلكم.

بعد دقائق قليلة ارتخت أعصابها، داهمها خدر طويل لصالح النوم والأحلام، حملتموها ووضعتموها في السيارة مرة أخرى، ثم اتجه السائق إلى المصحة. رحت في غفوة وسرحت عن الناس والأجواء، فرأيت جدتك تجلس أمام طاولة كبيرة، وأمامها عيال صغار يقذفونها بأكاليل زهور ناشفة. أفقت على صرختها العنيفة وكلماتها المنفلتة:

- نزلوني هنا يا أولاد الكلب.

جمد قلب أمك بشكل مفاجئ، شخطتْ في جدتك وكأنها تكلم طفلة، قاطعتْ صوت جدتك العالي، ردت عليها الشتمة بمثلها حتى سكن الصوت ووهن، ثم عاد المشهد لسيرته الأولى، صمت وأفكار تستعصي على الصياغة تدور في الأجواء بدون تعبيرات، كانت الحناجر قد تعبت والألسنة أجهدت والأبدان خملت. عند اقتراب السائق من المستشفى توقف بعيدًا عنه بمسافة كبيرة، ولما سألته لماذا لم يدخل؟ أجاب:

– الشر بّره وبعيد يا أستاذ. هنا الآخر. معكم ربنا.

عندما شعرت جدتك بأن عليها النزول تمسكتْ بالكرسي، أخذتْ تشهق وكأنها تقاوم الغرق، ثم استكانت سريعًا وثقل رأسها، أصبحت كطفل على وشك النوم. وقالت بصوت ضعيف موجهة كلامها لأمك:

– ما دمت لم أحدف الناس بالطوب لماذا جئتما بي إلى هُنا؟

منذ توقفتْ السيارة بكم أمام مستشفى المجانين وأنت تشعر بأنك في مغامرة مثيرة، لم تكن المسافة تزيد على مئة متر حتى بوابة المستشفى، ولكنكم قطعتموها في أكثر من نصف ساعة، كانت جدتك تسير بينكما وأنتما تحملانها تقريبًا من على الأرض، بسطتْ الكآبة ظلها على ثلاثتكم، جدتك كأنها تهوي في منزلق، وأمك تحاول الإمساك بها، وأنت حائر في التوفيق بين ما تشعر به وما يجب عليك فعله. كانت التفاعلات الداخلية في وعيك ترفض وصف جدتك بالمجنونة، فللكلمة وقع سيئ، ولكن إرضاء لنفسك قلت، حتى لو أُلصق بها هذا الوصف فهو مجرد تغيّر في التصورات ولا يُشكّل خللًا أساسيًا، فالمجنون لو جُرح أصبعه سيتألم كما يتألم العاقل، ولو مات سيتم دفنه بنفس الطريقة، وسيقيمون له أيضًا نفس المراسم والشعائر. عاودتْ الكلمة المرور أمامك من جديد كأنها طيف، "جنون" الحروف مرصوصة بجوار بعضها، تثير فيك شجونًا عقلية، الجيم حرف مغلق، له منزلق أفقي كالقرطاس، تترسب فيه متاهات المخ متناهية الصِغر، والنقطة من تحته تقف كحارس ينتظر مصير الحرف، أما النون، الحرف الثاني، فهو إناء لطهي ما قبله

من شجون، وما بعده من احتمالات، والنقطة في منتصفها كحساء شحيح ووحيد، والواو، الحرف الثالث، يعطف على النونين، أما النون الأخيرة فهي نهاية المطاف، ومقبرة الأسئلة المتوقعة بلا إجابات معروفة، والسد الذي تتوقف عنده كل ارتباطات الكلام، فلا تعود أبدًا كما كانت قبل أن تمر الكلمة وتأخذ موقعها المفترض.

تَلَفَتْ أعصاب جدتك وانفك تماسكها عندما أصبحتم أمام البوابة، لم يكن أحد يعلم متى يمكنكم الخروج إذا ما عبرتم هذا الحاجز الحديدي الأسود. أخرجت أمك من عبها تذكرة التحويل مرفقة بروشتة بها الدواء الذي كانت جدتك تتناوله. عبرتم البوابة، كانت الأجواء بالداخل أكثر سكينة وهدوءا من تصوراتكم المسبقة، وعلى عكس توقعاتك، لم يكن هناك "ملاحيس" يقفزون كالقرود فوق أغصان الأشجار، ولا عجائز يربطون آذانهم بأقراط من فِرد أحذية أو يلطخون وجوههم بعصير الطماطم، ولم تجد كائنات تقفز من بين أقدامكم وهم يضعون أكاليل من العشب فوق رؤوسهم.

وصلتم لمكتب الطبيب المختص، كان بشوشًا لدرجة أنه وجد صعوبة في غلق فمه، ظل يسأل جدتك أسئلة عامة ولا جدوى منها، سنك، سكنك، هل تجيدين طهي "المسقعة". انتقل من هذه الأسئلة السخيفة إلى استجواب أمك بعدما نظر مليًا في دوسيه مليء بالأوراق أمامه:

- هل تفعل ذلك منذ مدة طويلة؟

فردت أمك وهي تتلفت حولها مثل اللصوص، اقتنصت الإجابة على سؤال الطبيب دون أن تلحظها جدتك:

- منذ أربعة أشهر.

أمر الطبيب البشوش بانتظار أمك وجدتك بالخارج، ثم انفرد بك وسألك:

- هل أصابك مكروه بسبب علة جدتك؟

- كلمة مكروه ليست دقيقة. ولكن فقط بعض المضايقات.

كان يكتب كل ما تقوله، وكأنه سيسترشد به فيما بعد. وقف وترك قلمه ينام فوق الدوسيه وقال:

- أتعلم أن جدتك ليست الحالة الأولى التي جاءتنا وتريد التهام أي ذراع تراه؟

- هل هناك حالات مشابهة؟

ترك الطبيب القلم ينام فوق الأسئلة التي طرحها، ثم شبّك كفيه خلف رأسه وقال:

- أربع وستون حالة في ثلاثة أشهر فقط.

أخذتْ المسألة بالنسبة لك بُعدًا مختلفًا بعد كلام الطبيب. فقد كنت تتعامل مع جدتك على أنها مجنونة ولا تُصدق ما وصلتْ إليه، ولكن أن يشاركها في نفس الحالة ثلاثة وستون شخصًا فهذا حقًا غريب. عدت للطبيب هذه المرة ليس للإجابة على أسئلته، ولكن لتسأله أنت:

- وهل عرفتم السبب؟

- أسباب متنوعة لا يربطها شيء واحد.

صمتَ قليلًا ثم قال بطبقة صوت أقل:

- ولكن أغلبهم قالوا إنهم يشعرون بعد محاولات القضم بأنهم قد ازدادوا إيمانًا.

-٥-

عندما داهم الغروب العنبر نظرتُ من النافذة، فلم أر إلا ظلالًا خلَّفتها إضاءات أعمدة تظهر على مدد الشوف فوق الكوبري، وفي القريب، مئذنة مسجد صغير زاخرة بإضاءات فيها ألوان وزينة، وأمام المسجد تتجول عربات جمع المخلفات الطبية الخطرة.

على مقربة، كانت بعض التمرجيّات تطهو للأطباء طبخة عجيبة، قال حسن إنهم يسمونها "فتة الأرز المعمر"، وكانت عبارة عن خلاصة رؤوس بقر وصدور ديوك رومية مفروكة بكركم يعطي الأطباق لمعة ذهبية، كان الأطباء يأكلون بنهم، يحشون بطونهم كأنه آخر الزاد.

توقف حسن عن إطعام أبي الذي كان محملًا بأمارات التعبير، فقال شارحًا حكايته:

لم يكن الرجل مهيب الردفين منذ شهرين يركعها، ولم يكن مقيمًا في مصر أصلًا، ولما تجمّع له جمهور يؤيد كل ما يقول، وجدها وظيفة مريحة، وهل يوجد في الدنيا أفضل من أن يصدق الناس كل ما يقوله إنسان؟ عند جَلدي في الساحة أمام المسجد، وقبل أن أفقد جسدي بالكامل، كان كل من يقترب مني ويتبرع بضربي يشعر بنشوة غريبة، نشوة أحسها في قسوة الضرب وغِلّ الزغد، لم يجهزوا عدة تعذيب، ربما لو فعلوا لكان ذلك في صالحي، فلو أعدوا الكرابيج أو حتى

المقصلة ربما كان سيسبق ذلك محاكمة ما، ولكن لأن المسألة كلها جاءت عفوية، فإن العقاب العفوي دائمًا أقسى وأمر. بدأ الحراس أولًا في البحث عن سُبل يستحوذون بها على جسدي، فلم يجدوا إلا أحزمة الأمان في كراسي السيارات، ثم بعد ذلك بحث الجمهور عن أشياء شبيهة، سحب بعضهم أسلاكًا كهربية من الأجهزة الطبية، وإمعانًا في التعذيب كانوا يُقشرون العازل البلاستيك عن المعدن النحاسي الرفيع، ومنهم من أتى بخراطيم قسطرة مستعملة دون النظر لفكرة العدوى، ومنهم من لف على كتفه أحبال غسيل لا أعلم من أين أتى بها. تجمعوا كلهم من حولي بعد صلاة العصر وصنعوا دائرة كبيرة، اقترب قائدهم مني وظل يُلوح بسير كبير لف طرفه حول كفه، وما أن بدأ صياح الجمهور حتى اجتاحت حُمى قوية كل الواقفين من حوله، فبدأوا يُهللون ويزمجرون، تاه صوتي الضعيف وسط هدير من التداخلات الصوتية القوية، بعد ضربتين فقط أحسست بصداع قوي دون ألم محدد، هُيئ لي قبل بداية توقيع العقوبة أن الأمر سيكون أصعب، لكني أدركت بعد ذلك بقليل أن المشاعر السلبية التي اجتاحتني كان مبالغًا فيها وطفولية، إذ كنت أفكر في الدم الذي سيسيل والألم الذي سيهز الجبل، لكني أفقت بعد أسبوع واكتشفت أن الأمر غير ذلك بالمرة. فقد رأيت الغروب قبل ميعاده بساعات، وبعد توقيع العقاب بقليل أحسست بأنني أطير، أبتعد عن الرؤوس المتشنجة، أذهب بما تبقى مني إلى عالم بلا أرض، لا ارتباط ضروريًا هناك بين الأسئلة والأجوبة، ولا توجد إشارات استفهام ولا علامات

ترقيم.

جرّوني بعد ذلك وأنا متفسخ المفاصل ومنهك. هيئ لي أن شخصًا يمسك بزعانف شخص آخر ويسبحان معا في الهواء، ومن حولي تكوم جبل قطن وبكرة شاش كبيرة، ظلوا يلفون ذراعي بالشاش حتى اختفى تقريبًا، وبرغم عدم وعيي الكامل سألت نفسي، متى كُسر ذراعي، وما دمت في نظرهم مذنبًا وارتضوا تعذيبي، فلماذا يعالجونني؟ ربما أرادوا أن يجربوا معي سعير الدنيا، أي كلما كسرت عظامي جبّروني ليكسروني مرة أخرى؟ جرّوني بعد ذلك لعنبر كبير، يقف على بابه أشخاص تنبت لهم لحى حمراء بلون قشرة الرمّان، ثم..

توقف أبي عن تذكر الأحداث وكأنه خرج من الحلم، تثاءب وتخيلت له جسدًا يتمطع، وحسن يجلس بيننا، يُملّس على شعيرات متبقية في الرأس النائم.

مال حسن عليّ وقال إن إمدادات الغذاء في المستشفى على وشك النفاد، كان الجوع قد بدأ يتملك مني ويقرص أمعائي، لماذا لا أخرج وأشتري ما يعجبني من طعام؟ وبالمرة، أعزم أبي وحسن على وجبة ساخنة، فذلك سيكون بالطبع أفضل من التعيين الناشف الذي يوزعونه عليهم مرتين في اليوم.

خرجت في اتجاه البوابة التي دخلت منها، تهت عنها في الأول، ثم عرفتها فيما بعد بالشبه، كان سبب توهاني هو تغيير الورديات، فرجل الأمن الذي نظر في تصريح الزيارة عند دخولي كان نحيفًا وطويلًا وأسمر كعمود نور لا يضيء، أما الآن فيقف رجل بدين جدًا، يجلس كالزكيبة أمام البوابة،

نظر إليّ بعين مُحمرة وأشاح لي بكفه السمينة أن أعود أدراجي. فاقتربت منه وسألته:

- أين زميلك؟

- زميلي؟

- من كان واقفًا هنا منذ ساعتين.

- أنا واقف منذ ثماني ساعات.

- أنت تكذب. فأنا كنتُ هنا منذ ساعتين، أو ثلاث على الأكثر.

- يا عم روح.

ثم اقترب مني بشكل مبالغ فيه، حاولت إقناعه بأني دخلت من هذه البوابة منذ ساعتين ونصف تقريبًا، ولم يقتنع، لماذا أوجع دماغي بمحاولة إقناعه، أمسكت بالبوابة، فتحتها، أصبحتْ إحدى قدميّ بالخارج، انقض الرجل السمين عليّ، جذبني من ذراعي ودفعني للداخل فكدت أقع، شعرت بالخطر من شدة الدفعة، استعطفت الرجل الذي تحولت ملامحه بسرعة غريبة في اتجاه شراسة غير مبررة:

- سأشتري طعامًا.

- هأ.

- طعامًا من الخارج ثم أعود.

- هأ.

- لقد كنت بالخارج منذ ساعتين فقط.

- عد كما كنت أحسن لك.

تبدل قلقي بهاجس جديد تمامًا، الخوف، بالفعل عدتُ إلى أبي، كان المشهد كما هو وكأنهما تيبسا منذ تركتهما، حسن يجلس على حرف السرير، وأبي يخصني بتكملة ما حدث له في حوش المستشفى على أيدي الحراس الجدد، قال وملامحه تبدو أكثر هدوءا:

- ثم حضر الرجل الذي أنهى المسألة كلها في غمضة عين.

- من؟

فاندفع وكأنه ينتظر أن يسأله أحد:

- سيف باشا!

* * *

وهكذا بين عشية وضحاها أصبحت جدتك مجنونة، كان هذا رأي طبيب المستشفى الذي دونه بجرة قلم، ربما ليؤكد وجود منبوذين في هذه الحياة. تركتماها تواجه مصيرها وعدتما أنت وأمك إلى البيت، تقسّمت المهام التي كانت تقوم بها جدتك بين اثنين فقط، وأصبحت تنام بعمق منذ تركتْ البيت. ولكن الناس في مدينتك الصغيرة لم يتركوكما في حالكما، قالوا إنكما تخلصتما من جدتك بإيداعها مستشفى المجانين، وهي التي لا تستحق منكما ذلك أبدًا، وقالوا أيضًا إنكما قاسيا القلب، وكانت أي محاولة لمقاطعتهم تبدو غير وجيهة.

بعد ذلك بأيام قليلة اشتكت أمك من أوجاع جديدة، لم ينعم بيتكما بيوم واحد يكون مكان المرض فيه شاغرًا،

كتركة تتوارثها الأجيال. مرض أمك جاءها لا يحمل اسما هو الآخر، كانت تصحو من نومها مفزوعة كأنها ممسوسة بكائنات حضرت من بقايا حكايات قديمة، تشير إلى قدميها وتقول إن أظافرها اخترقت الحجب، بالفعل، كنت ترى أصابع قدميها جامدة وملتهبة، تلمسها كأنك لمست نارًا، ثم تبيض عينها مثلما كان يحدث لجدتك، تحكي عن اجتيازها لحلقات من لهب، تسعل بصوت متحشرج كالحشاشين، ثم تتغيّر نبرة صوتها تمامًا وتناديك باسم غير اسمك، تقول يا سعيد، وتنبهها لأن اسمك عمر، وأن سعيد أباك مات قبل أن تولد. وتركز أمك جيدًا قبل أن تقول:

- سعيد لم يمت.

انقسمت أمك بعد غياب جدتك لشخصيتين، شخصية تنام بالليل وهي كما عرفتها منذ وعيت، واهنة الصوت، مسلوبة الحيل، جُملها قصيرة ودالة على الهدف من أقصر الطرق، لا ترد على أغلب استفساراتك، ثم بقدرة قادر تستيقظ في منتصف كل ليلة بصوت وهيئة مختلفين، تحكي حكاياتها بشغف طفولي ومشاعر رقيقة، تلضم الجُمل وتحوّرها على قد خيالها، تنصتَ إليها وكلك شغف لمعرفة آخر الحكاية، كانت الموضوعات شيقة وغير مترابطة، تفسدها محاولات التحليل، وكنتَ عندما تسمع صفير الليل تهيئ روحك لاستقبال أشخاصها، كائنات ليست من لحم ودم، بل مشغولة من هواء وضياء، تشعر وأنت في حضرتهم بأنك تمشي على بساط من زهور، وتحس أصابعك مرشوقة في جرابات ناعمة كأنها أغماد من ورود، تُحل مفاصلك وترى

نفسك طائرًا والكون من تحتك يبدو صغيرًا، والدنيا بكل عُقدها عبارة عن كرة من خيوط متشابكة وتافهة.

اعتبرتَ ما حل بأمك شيئًا مسليًا، جعلك تتحمل سخافة الواقع، ولكنك لا حظت أنها كبرت فجأة عندما ابتعدت جدتك عن البيت، بانت تجاعيدها قليلًا، وكأنه لا يصح أن يكون مكان الكبير شاغرًا، وكأن جدتك يُعاد إنتاجها بشكل مختلف، وأنت تتابع التغيرات في جميع الأحوال، كانت أمك تبدو أخف ظلًا عندما تستيقظ بالليل وتحكي لك ما يشغلها، فتحدثك عن بنات تطير وفرسان يعبرون البحار بقفزة واحدة، كنت تشعر عندما تأتي سيرة البنات بشيء من التلذذ الحر، تتسلقك مادة طفيلية جنسية وينتصب شعر رأسك، كنت تستدعي نتفًا من طفولتك أثناء فترات الاستماع، تشعر بأنك تحولت لكائن من قطيفة، لا يشغلك ما كنته أو ما ستصير إليه، ترى الآن فقط، الآن الذي لم تكن تعلم عنه شيئا في حضرة جدتك، فقد شغلتكما مدة طويلة بالخوف، بالحرص على أطرافكما الفوقية من سعار فكيها، فربطتوهم مرة، وأخفيتوهم عن عينها مرات.

ولكن تغيّرا نوعيا حدث لأمك في فترات استيقاظها أثناء الليل، كانت تحكي عن زمن صباها كثيرًا، وكان عجيبًا أن تحدثك عن تحججها بالذهاب لأبيك الذي كان يعمل ترزّيا، وصفت لك بدقة كيف كان يضع لها الخطابات الغرامية بين طيّات عباءتها بعد تجسيمها على قدّها، وتحدثك كذلك عن الطريقة التي كانت تلمس أصابعه بها أصابعها. تضحك وتشرق بصّتها وهي تلف كتفيها في الهواء برقة، كأنها عبرت

بك الزمن، في هذه اللحظات الخرافية من عمر اليوم كانت تتبخر المحاذير وتتلاشى التوجيهات، كنت تشعر لو أن أحدًا رفعك في الهواء بخيط عنكبوت فستستجيب للقفز بيسر، وربما للطيران أيضًا.

ولكنها كانت المرة الأولى التي تعرف فيها أن أباك كان يعمل ترزّيا، وربما هي المرة الأولى التي يحضر فيها بقوة في حكايات أمك. أكانت صبية شاعرية تتسحب من وراء أبيها وتذهب لمحل الترزي الذي يقف فيه حبيبها؟ سعيد، الشخص الذي سيصبح أباك بعد مرور زمن غير معلوم؟ لو عادت أمك صبية صغيرة في مثل سنك، هل كنت ستحتاج لأب؟ أم كانت أمك الشابة ستلعب الدورين معًا؟

على أية حال، فقد عادت أمك في الصباح لسيرتها الأولى، تسعل وهي تجرّ قدميها لأقرب كرسي، كنت تشعر بأن أمك الأولى تُجيد تمثيل دورها، فلم تعلق بذاكرتك كثيرًا، أو بالأدق، كنت تتحملها لتعبر مرحلتها بسرعة، فتحملك على أجنحتها إلى أمك الثانية، الرائعة.

-٦-

مشينا أنا وحسن مسافة كبيرة داخل أسوار المستشفى وما يشغلني هو أمر واحد، لماذا لا يمكنني الخروج بالفعل من هنا؟ هل عبور سور قصير يحرسه شخص يمكن مساهاته بسهولة أمر بالغ الصعوبة؟ طرحت هواجسي على حسن بشكل مباشر:

- ألا يمكنني الخروج من هنا أبدًا يا حسن؟

لم يجب، ولم يثر سؤالي بداخله أي هاجس أو حتى دافعًا للتفكير، كل ما فعله أنه هز رأسه مرتين وهو يخرج سيجارة من العلبة، ثم انحنى يلتقط من الأرض حبًا من نبات أخضر في حجم البندق، أخذ يرجم به طيورًا شحيحة تقف على أغصان الأشجار العالية. كان الليل ينسحب ببطء وتظهر بقع ضوء في السماء، لفحة هواء ساخن لفّتنا ونحن نتجول بين الممرضات البدينات والعمال العابسين. أشعل حسن السيجارة وأخذ يسحب منها أنفاسًا عميقة ويخرج الدخان من فتحتي أنفه، خرج هادرًا كشلال يعبر كوخين، مد يده تحت إبطه ونتف شعرة بتلذذ، ثم انشغل مرة أخرى بسيجارته ودخانها الذي كان ينفثه بالورب من بين شفتيه كما يفعل عتاة المدخنين.

ترجّل حسن في اتجاه العنبر، وسرت خلفه، ثم سَرُعتْ خطوته وكأنه تذكر شيئًا مهمًا، اجتهدت لمسايرة ركضه،

كان هو الأسرع برغم قدميه القصيرتين، دخل العنبر وأضاء النور، كان يتجول بين الأسرّة وكأنه يبحث عن شيء فقده، اقترب من سرير كان يرقد فوقه رجل عجوز يشبه حسن إلى حد كبير، الرجل مضطجع ويتنفس بحشرجة، في أنفه معلق خرطوم، والخرطوم موصّل بسرنجة كبيرة تشبه الحقنة الشرجية، وصّل حسن فيشة خلاط به بعض المكونات التي كانت تبدو من بعيد كبقايا طعام، ضغط على زر التشغيل فارتفع صوت مزعج لثوان، أصبحت الخلطة كلها كمرق لزج، صبّها حسن في الحقنة الكبيرة وأخذ يضغط عليها فيشهق الرجل العجوز، على ثلاث مرات وزّع حسن المخلوط، بعدها نام الرجل ووصل غطيطه للعنبر المجاور، خرج حسن، ومن خلفه خرجت، وسألته:

- هل هذا أبوك يا حسن؟

- لا.

- فلماذا تشغل نفسك بما يجب أن تقوم به الممرضات؟

- لو لم أكن كذلك مع كل النزلاء لكان أبوك الآن مجرد رأس ميت يمزمز فيه الدود.

يُفضّل حسن ألا تكون إجاباته مستفيضة، يترك دائمًا مساحة وافية للتفكير والتأمل، كل رد فعل له يذكرني بالأفلام الأجنبية المتقنة، الثرثرة فيها قليلة، وتعتمد فقط على التخمين والتوقع من خلال النظرة أو اللفتة. كانت أصوات التروليات وأوجاع المرضى المتنوعة تعمل كموسيقى تصويرية مصاحبة لحوارنا، أو كخلفية للصمت الذي نستسلم له أحيانًا. بدا حسن مستعدا للحوار بشكل ما، فسألته:

- لماذا تساعدهم إذن. إن كان أبي أو غيره؟

- لأني لن أخرج من هنا في وقت قريب. ولذلك فأنا أفعل شيئًا مفيدًا أفضل من تسكّعي أو قرقضة أظافري أو انتظاري فتح البوابة.

- ولماذا أنت متشائم إلى هذا الحد؟

لم يرد.

استيقظ أبي بعد غفوة طويلة، أخذ رأسه يهتز وهو يقول كلامًا غير مترابط:

- تذوق الطعم. حلو يا سيف باشا. حلو يا باشا أليس كذلك؟!

وقبل أن أهمّ بأي استفسار خرج حسن وناداني بالإشارة من خارج العنبر، ابتعدت عن أبي وأنا أحاول تذكر ما ردده مرة أخرى:

- تذوق الطعم. جميل جدًا يا سيف باشا. حلو. أليس كذلك؟!

عبرنا أنا وحسن الممر الطويل المؤدي إلى العنبر، اجتزنا كذلك عنابر الدور كله وحسن يسرع في اتجاه الخروج، وكلمات أبي تطنّ في أذني "حلو يا سيف باشا" من يكون سيف باشا هذا، وهل اسم سيف يصلح لأن يعقبه لقب باشا، بل هل تصلح كلمة باشا كلقب أصلًا في هذه الأيام؟

سألت حسن، وكانت إجابته مشروطة بأن نقف في مكان براح، وعندما وصلنا للحوش الذي تتفرع منه البوابات الكثيرة للمستشفى جلس حسن على النجيلة وقرفص،

فقرفصت بجواره، وبدأ يشرح لي كل ما استغلق عليّ فهمه، وخلاصة ما حكاه حسن أن سيف باشا هذا شخص ما زال حيًا يرزق داخل المستشفى، وأنه موكل إليه تنفيذ العقاب بنفسه في الحالات القصوى كما حدث مع أبي، فوق هذه البقعة التي نجلس عليها في صرة المستشفى دارت معركة شرسة خاضها أبي منفردًا مع جيش جرار أوله مدير المستشفى الجديد وآخره سيف باشا، وبينهما طوابير بلا عدد من جمهور متنوع المشارب.

في صباح تنفيذ الحكم أمر الباشا بأن يركض أبي لمسافة مئة متر بأقصى سرعته، وفعل أبي مرغمًا، ركض، ولما وصل عند قدمي صاحب الأمر، كان التعب قد هدّه، فوقف ينز كل الماء الذي نشعه جسده، وأمر الباشا بجلد أبي عشر جلدات وصاية، فخرج صاحب الردفين الكبيرين ورفع سوطه في الهواء، ثم طرقع به على الأرض ثلاثًا وهوى على ظهر أبي العاري، كانت كل جَلدة تحفر مكانها أخدودًا، ويقع جلد مفرول على الأرض، ويمسك به الباشا ويقربه من فم أبي ويقول له وهو يضحك كمن أصاب دماغه خلل:

- كُل لحمك. سيقضي بعضك على بعضه.

ويتذوق أبي جِلده ويسأله سيف باشا:

- حلو. حلو أليس كذلك؟

ويرد أبي بصوت واهن لا يقوى على دفع جملة خارج حلقه:

- حلو يا سيف باشا. تذوق حتى. جميل يا سيف باشا.

بعد هذا المشهد أمر الباشا أبي بأن يركض لمئة متر أخرى، فركض منهكًا وهو يلف ككوكب يدور حول شمس، ثم توقف أمام سيف الباشا.

وانتهى كل شيء.

منذ أربعين يومًا وأبي قد تحول لجزءين انقسمت فيهما روحه، توقف جسده عند البوابة فألقوا القبض عليه، وسقط رأسه في مكانه. وبعد مرور أكثر من دقيقة على توقيع العقاب، توقف الحراس وهم فاغرو أفواههم، في أيديهم كرابيج وسيور كراسي، وبقع من دم أبي تلمع على لحاهم المصبوغة بلون قشرة الرمان، باهتين، محملقين، فبعد جلبة استمرت طويلًا توقفوا عن الكلام، توقفوا تمامًا عندما رأوا رأس أبي، أبي أنا، يتكلم وهو واقع بين أحذية الحراس، وبنفس نبرة الصوت يقول:

– حلو يا سيف باشا. جميل. تذوق الطعم. حلو يا سيف باشا.

* * *

كان غياب جدتك عن البيت له ميزات عدة، أصبحتْ أمك تحكي ما تشاء، وأصبحتَ أنت أكثر اتساقا مع الحكايات، لدرجة أنك اكتشفت نفسك من جديد، فكل ما امتنعتْ أمك عن حكيه أيام جدتك قامت بحكيه بعد غيابها، كان ينفرط من عنقود القصص في كل ليلة حبة، تبحبحتْ في الكلام عندما أصبحت هي أقدم من في البيت،

لم يعد فوقها رقيب يُملي عليها ما يجب قوله، أو يحجب عنها ما يُديين من فض الأسرار، عرفتَ ملامح أبيك وبدأت في تصوره كائنا مكتملا، رأيتَه يتدفق عبر القصص والمواقف التي بدت لك طازجة، كان في الحكايات طويلا وله أصابع قوية وساعد يمكن أن يسند عليه جدار، وكان طيفه يخرج من أبخرة أكواب الشاي التي تنفحك أمك إياها أثناء حديثكما.

منذ ذهاب جدتك إلى مستشفى المجانين لم تزوراها إلا مرة واحدة، وعندما رأيتماها كانت ملامحها قد تغيرت قليلا إلى الأفضل، زاد وزنها بعض الشيء وأصبحت غير مهمومة بما يحدث خارج أسوار إقامتها، طبخت لها أمك فروجة كبيرة، وأخذتْ معها في شنطة مستقلة بعض المقرمشات والبسكويت ومستلزمات الزيارة. عندما دخلتما كانت جدتك جالسة على النجيلة ومقرفصة، تشد من الأرض بعض خصلات خضراء وتعبث بها، جريتما في اتجاهها وحضنتها أمك، لم تكترث جدتك، ولم تمد ذراعيها، قالت بصوت تاهت فيه مخارج الألفاظ:

-تذكرتماني بعد أسبوعين يا أولاد الكلب؟

-أنت لا تغيبين عن بالنا أبدًا.

ردت أمك فرمتْ جدتك الفسيلة الخضراء من يدها، وبعد أن ثرثرت بكلام غير مترابط صمتتْ، لم ترد على استفسارات أمك عن أي شيء. كانت تتأمل أفرع الأشجار وسيقان الورود وأعواد الريحان التي يهزها الهواء بحرية، مالت معها كسباطة موز منتشية، غنت بكلمات بطيئة مخدرة أغنية "مال العزال ومالنا" ثم استسلمت لنوبة من الضحك وراحت

تُسرف في طقطقة سنتها الوحيدة المرشوقة في لثتها. كانت تُضيّق عينها وتزرّها أمام كل ما يتحرك من حولها، وكأنها رأتْ ما يستحق الملاحظة، كنت تشعر بأشياء تُضيء وتنطفئ في دماغها، وتحس في نظراتها بشعيرات تطقطق وتنفلت من مكامنها، أدامتْ إليك النظر بتأمل، ثم قالت ورذاذها يبخ قميصك:

- عُدْ إلى البيت يا لوح وخذ في يدك أمك المهفوفة.

قالتها ثم أمسكت بجلبابها من الوسط وأخذتْ تلتوي كحبل معقود. كانت جدتك التي تعرفها تذوب أمامك كقطعة جليد تتعرض لسطح ساخن، لم يعد لها الوقار الذي كان، فبعد أن استبد بها التعب والإرهاق تمددتْ على النجيلة، وضعتْ رأسها الصغير على فخذ أمك، بعد قليل انتظمت أنفاسها وراحت تغط. فجلبت أمك كومة نجيلة ووضعتها بديلا عن فخذها، ولما استراح رأس جدتك على الفسائل الخضراء انصرفتما.

كانت أمك تتحدث كثيرا عن صلة الأرحام، ولكنها لم تستطع الصبر طويلا على خرف جدتك، قاومتْ لمدة ثم استسلمتْ، تحولت بعد انفلات شعيراتها العقلية لكائن آخر.

عندما عدتما إلى البيت أمرتْ أمك بأن يذبح عنزتها جزار ويُفرق لحمها على الغلابة، وفي اليوم التالي باعت دجاجاتها القليلة وتبرعتْ بعشها الخشبي للجيران، بعد مرور أسبوعين على غيابها كنت على وشك نسيان جدتك تمامًا، وسألتَ نفسك، هل أرادتْ أمك بوعي كامل التخلص من كل متعلقات أمها؟ بهذه التصرفات سيتم محو أثرها كله في

ساعة واحدة، وكأن نزوة عقلية حلت بأمك هي الأخرى، ولما سألتها عن ذلك قالت:

- جدتك لم تعد موجودة.

باغتك الرد السريع، فجدتك نائمة هناك فوق كومة نجيلة على بُعد عشرات قليلة من الكيلو مترات، تركتها والروح لا تزال فيها تدب، وقبل أن تتعمق في تأملاتك الفكرية سمعت طرقا متواصلا ومزعجا على الباب، سأل الطارق عن اسم جدتك كاملا وهل هذا العقار يخصها، أجبته بصحة استفساره، فأخرج ورقة من دوسيه مدفون تحت إبطه وقال:

- لا بد أن يأتي أحد غدا للمصحة لكي يتسلمها، فقد تعافت.

بعد ساعات قليلة كانت جدتك بينكما، تتحكم فيكما من جديد وكأنكما عبدان لها، أضيف لجدتك الجديدة قدم ثالثة، عصا بُنية تسند عليها دائمًا بنصف انحناءة، وأضيف لها أيضًا حركات جديدة، كانت تقف على طراطيف أصابعها وهي تمسك بالعكاز من المنتصف، توازن بين طرفيه وكأنها ستعبر قمتي جبل، وعندما وقعت منها العصا بغتة ورنت على البلاط، ولكنها ظلت ترفرف بيديها، بدون عصا، وكأنها على وشك الطيران.

-٧-

برغم كل ما يحدث، لم أجد راحة حقيقية إلا وأنا بالقرب من أبي، فلم يعد لي بالفعل غيره كما قالت أمي في آخر كلماتها. كان حسن لا يزال مقرفصًا بجواره، وهو يحكي له حكاية لم أسمعها من أولها، ولما طلبت الإعادة قال أبي:

- دعك من الحكايات. أنا أريد منك أن تعيد إليّ ما أخذوه.

- ما أخذوه؟

- نعم. خيّروني بين ما تراه الآن وبين ما غيّبوه. فاخترت الأول وأخذوا هم الثاني وحبسوه.

- حبسوه؟

تكرار الكلمة الأخيرة كان يستفزه بشدة. توقف الكلام عندما دخل الرجل مهيب الردفين وتمسمر أمام اللوحة التي اشتريتها قبل مجيئي إلى هنا، باعد بين قدميه ووضع يديه خلف ظهره فطالا بعضهما بالكاد وسأل:

- على ما يحتوي هذا البرواز؟

جذب الرجل اللوحة، فضّ عنها غلافها بقسوة، تأملها قليلًا، وضع إصبعه السمين على ضفيرة منسدلة فوق كتف الفلاحة، ولم يتكلم، ثم انطلق وفي يده اللوحة، اقترب من النافذة، وجريت أنا من خلفه، عندما وصلتُ إليه كانت اللوحة تترنح في الهواء، لمحتها وهي تسقط في عربة المخلفات الطبية الخطرة.

في كل لحظات ضعفي، لحظات الهروب من مواجهة خطر ما، كنت أتذكر ملامح أمي، كان مجرد التفكير فيها كفيلًا باستدعاء خيالات مريحة ومحببة إلى نفسي، تصورات عن فترة لم أعشها من قبل، فترة تعرفها الأحلام ولا تعرفها الحياة المحدودة التي باستطاعتي أن ألمس فيها الأشياء والناس، أنادي بأسماء أنساها فور انتباهي مباشرة، ثم أسرح وكأني رحت في غيبوبة.

كنت قد نسيت الحكاية الأولى غير المكتملة لأبي. توجهت إليه وسألته عن الشيء الذي يطلب مني استرجاعه، فلم يرد، ولكن حسن رد:

- يقول لك يجب عليك استرجاع ما فقده منهم. أبعد كل ذلك لم تفهم؟

- ممَن؟

- الحراس الجدد.

لم أتوقف كثيرًا عند كلمات حسن، ولكني سألت أبي مباشرة:

- ما الذي تريد استعادته؟

- ما فُقد مني.

- وأين أجده؟

- في المخبأ.

- وأين المخبأ؟

- خلف المخزن.

سعل أبي سعلة خفيفة ثم توقف عن الكلام، فقام حسن

وجذبني من ذراعي وقال:

- لا بد أن يرتاح الآن.

خرجنا معا وتركنا العنبر، كانت الأقدام قد خفّت من الردهة الطويلة، لم يكن هناك بشر على مدد الشوف إلا عامل وحيد يكنس المخلفات ويمسح البلاط، حيّانا، قال "السلام عليكم" وأخذ يكمل ما بدأه من عمل مجهد وشاق.

جلس حسن في البوفيه وطلب شايًا، فجلست بجواره وسألته:

- كيف نستعيد ما يريده أبي؟

لم يجب حسن، شدني من يدي وقام، ولما خرجنا شرح لي سبب الخروج:

- هنا ليس للحيطان آذان. بل الحيطان نفسها آذان متنكرة.

- هل يتنصتون على كلماتنا؟

- وعلى نوايانا إن أمكنهم ذلك.

نزلنا دَرَجًا خلفيًا قديمًا يفضي إلى ساحة كبيرة، حوْلها أعمدة إضاءة خافتة، كانت الأضواء صفراء وشاحبة تُلوّن الأرض، وعمال يدفعون عربات المخلفات الطبية الخطرة ويتجولون في كل مكان، يلبسون زيًا موحدًا صارمًا في دقة درجة اللون الأزرق، وعرباتهم مملوءة على آخرها بالمخلفات الخطرة، لم تكن المحتويات سرنجات مستعملة فقط، ولا خراطيم نقل الدم ولا قطنًا ملوثًا، ولكن في العربات ترقد أشياء أخرى تشبه كراكيب منازل أرستقراطية، ملابس ملونة، تنانير وبناطيل جينز، توَكْ شعر، أحذية رجالي، زجاجات عطور،

كتب بأغلفة فخمة، تختلط هذه المتعلقات ببقع الدم وشاش تضميد الجروح وعبوات محاليل فارغة.

ابتعدنا عن العربات وسألت حسن:

- قل لي. كيف يمكننا استعادة ما فقده أبي؟

- لماذا قلت يمكننا؟ تقصد يمكنك.

- وأنت؟

- وجودك هنا لساعات قليلة لن يجعل باستطاعتك استيعاب ما يحدث.

عندما اقتربنا من البوابة الرئيسية جذب حسن ذراعي وعُدنا للساحة وأعمدة الإضاءة الخافتة. لم يعد يعنيني إلى حد ما إن كنت سأخرج عما قريب أم سأظل هنا حتى أموت، ما كان يحرك اهتمامي فعلًا هو كيف سأفي بمطلب أبي، وهل أنا بالفعل قادر عليه؟

جلس حسن على حافة نافورة من نوافير كثيرة، قال إن مدير المستشفى اشتراها من بلاد برة، ثم أضاف:

- هل تعرف هذا المبنى؟

كنا بدون وعي كامل قد أصبحنا أمام مبنى يشبه فيلا قديمة مفتخرة، تحوطها حديقة صغيرة وأنيقة. كان منظرًا جميلًا، لكني لم أستخلص شيئًا من سؤاله.

وأجاب حسن:

- إنه قصر أمير قديم. وهو البذرة لإقامة هذا المستشفى الكبير.

- ربما يكون كلامك صحيحًا يا حسن. ولكن ما دخل

هـذا بمشـكلتنا؟

- خلف القصر يوجد المخبأ.

- فلنذهب إذن خلف القصر ونبحث عما فقده أبي.

مللـت مـن جـذب حسـن لذراعـي، لا يريـد أن نسـتمر في مكان بعينـه، لا نسـتقر عـلى حـال واحـد لأكثـر مـن خمـس دقائـق، وكأن هنـاك مـن يراقبنـا بشـكل دائـم. أشـار حسـن إلى رجـل مهيـب الكـرش واللِّغـد، طويـل كعفريـت القمقـم، ملامحـه عبوسـة ومرعبـة، حـاول أن يبتسـم فخرجـت الابتسـامة أشـد رعبًـا:

- عليك أن تجتاز هذا الفيل أولًا.

قال حسن.

- وبعد ذلك؟

- نتعرف على ما فقده أبوك.. ونُعيده.

أصابتنـي كلـمات حسـن بالخيبـة، ولـو أضفـت لذلـك منظـر الرجـل وحـشي الهيئـة الـذي كان علينـا اجتيـازه لأصبحـت المهمـة شـبه مسـتحيلة. عندمـا اقتربنـا مـن مـكان الحراسـة تظاهـر حسـن بأنـه لا يعرفنـي، تأخـر خطـوة واحـدة عنـي، بـدا وكأنـه مـن بلـد آخـر، بعـد خطـوات قليلـة تبخـرت شـجاعتي التـي كنـت أتباهـى بهـا منـذ قليـل. تسربـتْ شـيئًا فشـيئًا حتـى اختفـت تمامًـا، واختفـى حسـن، وصرتُ جبانًـا.

* * *

توقف ولع أمك بالحكي عندما عادت جدتك إلى البيت، عدتما مقيدين مرة أخرى بما يليق بمزاجها، أول ما وصلتْ سألتْ عن دجاجاتها وعنزتها، وقبل أن تجيب أمك وقفت جدتك في وسط الصالة وتهيأت تمامًا لكيل السباب، رفعت حاجبًا واحدًا وأمسكت بجلبابها من الوسط وهبّتْ فيكما:

- بعتوهم. هه؟ شفطتوهم. هه؟ قلتم ستموت. أنا قاعدة على قلبكم وسأشيّعكم جميعًا إلى القبر.

بعد حبستها في المستشفى لعدة أسابيع تعلمتْ بعض حيل المجانين، لساعات طويلة كانت تردد كلمات بعينها، من طول التكرار كانت الكلمات في أذنك تفقد معناها، ظلت مرة تعيد وتزيد في جُملة لم تترك حلقها "الجثة يأكلها الدود.. الجثة يأكلها الدود.. الجثة يأكلها الدود.. الجثة..."

مدت جدتك يدها ورفعتْ دُمية كبيرة مصنوعة من القش، تعصبتْ وزمّت شفتيها ككيس نقود، زبدت ونفرت عروقها وهي تمزق الدمية، خلعتْ رأسها عنها، فصلته تمامًا، وألقت به فتدحرج بالقرب من قدميك، قالت وغبار القش يلف رأسها الصغير:

- اشتراها أبوك لك وأنت في اللفة، والآن أصبحت شحطا ولا يليق أن تلعب بها.

لو أننا لا نزال في العصر الذهبي للمؤرخين لكانت سيرة جدتك قد ملأت آلاف الصفحات، ربما كان فيها ما يُغري أكثر من حكايات الملوك والأباطرة، كان تكرارها للكلمات يحتاج لقاموس جديد، كأن مخها أصابه العفن، فتشابك الكلام على لسانها مربك لدرجة المتاهة، ولم تكن وعكتها

الصحية هي السبب في جلبتها؛ بقدر ما كانت تبحث عن مكانة تليق بها بعد الغياب.

حاولت بالاشتراك مع أمك تغيير خطة علاج جدتك، لم تكن على يقين بأن داءها يمكن علاجه، ولكنك برغم ذلك فعلت الكثير من أجلها، تحملت عناء البحث عن شيخ صالح يعالجها بالقرآن، بعد العثور عليه جاء يرفل في عباءة جوخ وعمامة مُنظمة، حاول معها لأكثر من نصف يوم، قرأ ما يحفظ ونقعَ أحجبة وأقام شعائر، عزّم وبخّر حتى احتقن وجهه، أخذ الشيخ يُلقن جدتك بكلمات لفظتْها جميعًا، ثم التفتت إليه وسبّته بأقذع الشتائم، تعرى الرجل من هالاته بلسانها الحامي، انسحب من سكات وخرج، ومثلما جاء ذهب، بعدما فشلتْ تراكيب العقاقير ومنقوع الأعشاب وكئوس الحجامة في تخفيف آلام جدتك هدأ حالها، ذهبت لسريرها الحديدي أبو عمدان، أعدَّت نفسها لمشهد احتضار تقليدي، نامتْ وشدت أمك فوقها ملاءة بيضاء مغسولة ومكوية، شعرها المحنّى بلون قشر البرتقال هائش ومنشور على الوسادة، مركون بجوارها كومودينو مرصوص فوقه بقايا طعام وعلب أدوية وزجاجة مياه وطبق عسل أسود، فوق مقبض دُرجه مسبحة قديمة مربوطة تعود لأجيال متعاقبة من الأسلاف.

لم يكن حول جدتك أحد يقلق بسبب الميراث، وذلك لسبب بسيط جدًا، أنه لا يوجد ميراث أصلًا، لا شيء غير حكايات عن عز كان.

كانت أفعالها الغريبة مجرد محاولات للتمسك بالحياة

ومقاومة لحظات الاحتضار، ولكنك رأيتَ أن تصرفاتها التي تحاول بها المقاومة تُقربها أكثر من ميعاد الرحيل، وبرغم ذلك لم تستشعر في نظراتها أي يقين بأنها تعيش ساعاتها الأخيرة.

أصبح لعابها كالغراء بين شفتيها الموارتين، وعظام وجهها تشبه أرضًا شرقانة، كانت عينها يقظة وتدري كل ما يدور حولها، إذ إنها قبضتْ بسهولة على بقّة تتمشى فوق كتف أمك وفعصتها بين إصبعيها، وكانت كذلك تتابع بقايا الأطعمة على الكومودينو وتعرف محتويات أدراجه من بصة واحدة.

سحبتْ جدتك شلتة مزّيتة وحشرتها خلفها، عدّلت من وضعية ظهرها ورجعت بجذعها حتى أصبحت كالجالسة، ثم نظرتْ إليكما مليًا وقالت برصانة لا ينقصها التركيز:

- لماذا تجلسان هكذا من حولي؟

ثم أصبحتْ ملامحها أقرب لخريطة تحتاج لمستكشف صبور.

-٨-

عندما أتذكر نفسي وأنا خارج البوابة أشعر بأني كنت غاية في البراءة، وربما العبط، كيف استسلمتُ لهم حتى حبسوني في هذا المكان؟ أنا لا أعرف هنا إلا حسن، وحتى حسن، يعتبر بالنسبة لسذاجتي شخصًا واعيًا برغم غموضه هو الآخر.

لم أكن أستطيع العودة لأبي وأنا على هذا القدر من الإحباط، وقفتُ مع حسن في قلب الساحة الكبيرة خافتة الإضاءة، ثم جلسنا نشرب شايًا، لم يكن أحد يصنع الشاي في المستشفى إلا عاملة مترهلة وملثّمة، كان كل ما فيها أبيض وكأنها نبتت من كومة قطن، لماذا يعتقد الحراس أن اللون الأبيض ملائكي؟ كان لونًا يمثل لي وجهًا صريحًا للكآبة، فهو لون أثواب اللحود، والأحلام الهلامية التي لا تقف على أرض واضحة ولا تعبر عن شيء محدد.

لماذا أحاول أن أفهم كل شيء، لماذا أضغط على أعصابي بهذا الشكل؟ هل لأني وجدت نفسي فجأة في محيط أناس لا أعرفهم؟ ألا يكفي أني في كنفهم أصبحتُ بعيدًا عن تفاهات الحياة بالخارج، فهنا لا وجود إلا لما يحدث بالفعل، مهما كان قاسيًا فإنه حقيقي، فجميع المتع هنا لا تخرج عن وجبات لذيذة تُطهى للحراس أو يطهونها لأنفسهم، ثم بعد ذلك إقامة الشعائر وبدء أحاديث لا تنضب عن أشياء لها يجهلون، ثم النوم والانزلاق للخدر والأحلام التي لا حدود لها.

سرت وأنا لا أرى من الناس إلا أجرامهم، لمحت أحدهم نائمًا على ظهره وكرشه قابب نحو السماء، كانت شمس الغروب تلوّن الأرض بصفرة قابضة، تابع الرجل سحابة تبتعد ببطء وقال كمن يناجيها:

- الملك لك. لك.

بعد خطوات قليلة اقتربتُ من بوابة تقف عليها حراسة صارمة، عبرتها عربات متقاطرة محمّلة بكراتين أدوية وعلب عصائر وقدور بها لحوم مطهوة يلقّ فيها المرق، وزع الحراس ما بالقدور على بعضهم، ووزعوا الأدوية على النزلاء.

اقترب مني رجل طويل بغير انحناء، عريض بغير ترهل، ساعِده في صلابة فرع كافور، كفه سميك وأصابعه في حجم أصابع موز، لم يكن منشغلًا بما يفعله الحراس من حوله، ولكنه كان يحفر بقادوم صغير ويرمي بذورًا بيضاء كحب الفاصوليا في الحُفر، بعد انتهائه من نثر بذوره قام واستل من جراب يحمله مقصًّا كبيرًا أطول من ذراعه، ثم وقف يقصقص ما زاد عن الأشجار القصيرة التي استدارت وظهر في منظرها شيء من الجمال. اقتربتُ منه وسألته:

- ماذا تفعل؟

- أعمل بمهنتي.

- وما هي مهنتك؟

- بستاني.

قال ويده لم تتوقف عن العمل، بعد انتهاء تدوير الأشجار، جثا على ركبتيه وأخذ يضبط دوائر النجيلة، كانت محاولاته

جادة ومرهقة لجعل الأرض منظمة التعاريج كأشكال هندسية، مثلثات ودوائر وسنبوكسات تبدو متناغمة، كان كأنه يرسم الأرض ويعيد تشكيلها بطريقة تناسب شيئًا في نفسه، وكنت معجبًا بالفرجة عليه لدرجة أنستني العربات التي تتدفق عبر البوابات، نسيت أيضًا الرجل البدين النائم على ظهره وهو يناجي سُحب السماء.

سألتُ البستاني بعدما وجدت شيئًا يستحق التأمل:

- لماذا أنت تعمل وهم راقدون هكذا في بلادة وكسل؟

نظر الرجل هائل الجِرم إليّ مليّا، وأخذ يتابع الأقدام وهي تدق الأرض من حوله، ثم قال بشيء من الحدة:

- لا تقل عنهم هكذا.

حيّرني رد فعله غير المتوقع، لماذا يدافع عمن ينامون ليل نهار؟ أجبرتني حدته على التوقف عن إصدار الأحكام المتسرعة ومحاولة تأمل كلماته. وطرحت عليه السؤال بصيغة أخرى:

- لماذا تدافع عنهم وهم لا يعملون؟

- دعاؤهم لنا يكفي. فنحن نعيش ونجد اللقمة بسبب بركتهم وبِشرهم.

- يمكنك أن تجد اللقمة بدونهم.

- لا.

- ولكنهم لا يعملون.

- هم يعملون في أصعب المهن، وكل ما يتمناه شخص عادي مثلي هو الوصول لمثل ورعهم وتقواهم.

بدا على الرجل صدق وخشوع. طأطأ رأسه وشخط فيّ كمن فاته موعد هام:

- سامحك الله. درس الوعظ بعد العصر. الوعظ بعد العصر.

جرى البستاني فهُيّئ لي أن الأرض تهتز من تحتي، بعدما غاب الرجل الورع عن نظري قب في نفس المكان واحد من الحراس، كان كالخارج من تحت الأرض، اقترب مني دون أن يتكلم، داس على الدوائر والمثلثات وسنبوكسات النجيلة التي أجهدت البستاني في رسمها، ثم نام، بططت نومته العشوائية الحشائش وجعل مثلثاتها تتوه مع دوائرها، بعد ما فعل الرجل ما عليه في إفساد المنظر الجمالي للنجيلة اختفى عن الأنظار هو الآخر.

وقبل أن أحاول تفسير ما فعله نط حسن أمامي كأراجوز مربوط في "أستك"، كنت كمن يشاهد سينما خيالية، الجمهور فيها شخص واحد. تتتابع الأشخاص أمامي وتمر الأحداث بسرعة، كأني قناة وهم الماء، ينسابون من خلالي، بدون تحكم مني أو منهم. قال حسن الذي أصبحت أتوقع مجيئه في أي زمان ومكان:

- لماذا كنت تتحدث معه؟

- مَن. تقصد البستاني؟

- نعم.

- هو رجل طيب. يرسم النجيلة ويشذّب الأشجار وينثر الحَب.

- إنه ليس طيبًا. لو عرفت من هو ربما غيرت رأيك.

تتبّعت عيني أثر البستاني وكأني أرى خيالًا منه تبقى، لم تكن مفاجآت حسن تروق لي في أغلب الأحيان، لأنها تضيف دائمًا معلومة لا أستعد لاستقبالها. سألته وأنا أحاول رسم ملامح لا مبالية:

- من يكون؟

فاقترب مني حسن، تلفّت حوله ثم قال وكأنه يستعد لأن يصير هلامًا:

- من كنت تتحدث معه منذ قليل هو سيف باشا. بذات نفسه.

* * *

وتفكر في الهروب من هذا البيت الكئيب، فقد كان مجرد التجول في ملامح جدتك يُشعرك بالرهبة وشيل الهم، تشبه ملامحها كرنفالا لإحياء ذكرى أزمنة مضت.

قامت من فراشها وهي التي لم تفعل ذلك منذ أيام، فتحتْ ضلفة دولاب وحيدة وأخذت تتفحص تنورة قديمة اعتلتها الأتربة، أخرجتْها وحبكتْها حول خصرها، تأملتْ الكرانيش والتخاريم للحظات، ثم خلعتْها ووضعتْها مكانها لما أحست بوجودك قريبًا منها، ذهبتْ لسريرها الحديد أبو عمدان مرة أخرى وراحت في النوم بسهولة.

كان وجود جدتك معك في مكان واحد أمرا تحاول منه الهروب، شعرت بأن عمليات معقدة داخل دماغك تحظر عليك التفكير، لطالما حاولت تأمين نفسك داخل هذا

البيت، أو بعبارة أخرى، حاولت تأمين عقلك من الغياب، اجتهدت ليكون وعيك حاضرًا وسط هذا التزاحم المربك، لم تعد تملك نقاء اللغة التي تمكنك من المقاومة، ولم يعد في استطاعتك أن تعبر بواسطتها عما يدور في نفسك، تنصاع أحيانًا للمناورات اللغوية وتستسلم لها.

لم تعد الثقة تعني بالنسبة لك ما كانت من قبل تعنيه، وتعاليم الدين أيضًا، وقفت في منطقة رمادية باهتة، تاهت منك حزمة التقاليد الصارمة التي اجتهدتْ أمك في تثبيتها داخل دماغك. توقف بحثك عن مبررات أخلاقية لما تراه حولك من أحداث، كنت تبحث عن صيغ جديدة تناسب فقط ما تشعر به من أحاسيس.

اقتربتَ من سرير جدتك، تأملت ملامحها جيدًا، لوهلة شعرت بأنك لا تعرفها، الاقتراب الشديد من أي شيء يُحيله إلى أجزاء ضعيفة الترابط. أشارت لك بإصبعها كمن تستدعي أحد خُدامها، أملتَ أذنك ناحية فمها، فقالت بصوت ضعيف متحشرج:

-نفسي في المشّبك يا مقصوف الرقبة.

استهلكتَ وقتا طويلا حتى استوعبتَ ما قالت، وأثناء هذا الانتظار دبّت يدها في عبها وأخرجتْ جنيها غريبا، قديم الشكل مهلهل الحواف وضِعف حجم الجنيه في هذه الأيام، تناولته منها وخرجت، لا تعرف من أين ستشتري لها المشبك.

وبعد أن توالت تصرفاتها غير المترابطة، حدث ما أكد لك بأن نهايتها تدق الأبواب بقوة.

-٩-

ما قاله حسن غيّر الترتيبات في دماغي، إذ لم أتخيّل أن الرجل الذي قسّم أبي لرأس وجسد يمكن أن يكون بهذه الرقة، يعتني بالزرع ويُقلّم الأشجار ويستمع لدروس الوعظ أيضًا، عندما نطق حسن باسمه أحسست بأني معدوم الحيلة والتصرف. استعدت بهدوء ملامح الرجل لأعيد تشكيلها في وعيي من جديد بما يناسب شخصًا شريرًا، كان يعتمر عمامة ريفية ويلبس جلبابًا بلديًّا يرتدي من تحته صديريًا وينتعل بُلغة، كان منظره العام كأي فلاح ميسور شريف.

ولكني بعد كل هذه المتاهات رأيت بأني حِدت عن الهدف الرئيسي لمجيئي إلى المستشفى، أبي، لقد طلب مني صراحة أن أبحث عما ضاع منه، لم يطلب مني قتالًا أو سفرًا بعيدًا، لكنه طلب ما أخذوه، جزءا منه، الجزء الأكبر، بل كله تقريبًا، ولو كان ما تبقى منه بالفعل ينعم بالحياة ولم يدفنوه، فهل سيمكنني التعرف عليه؟ ماذا كان يلبس أبي وقت توقيع العقاب عليه في ساحة المستشفى؟ هل كان يُدفئ رأسه بالزعبوط القطن الذي لا يزال يلبسه حتى الآن، هل يناسب وجهه السمين جسدًا مترهلًا؟ وبنفس القوانين، هل ينموان مع بعضهما كما كانا من قبل؟

غطى الظلام المستشفى إلا من أعمدة إضاءة خافتة، ونور آت من بعيد على مدد الشوف، فالكوبري أمام البوابة لا يزال مُضاء ببعض كشافات غابشة. لمحت سيف باشا يمشي

ببطء، وفي يده سبحة طويلة تكاد تلمس الأرض، لما رآني تائهًا ولا أستطيع التكلم وقف إلى جواري وقال:

- مالك؟

اتخذ شكله الذي يناسب مكانته في ذاكرتي، كنت لا أزال أراه رجلًا طيبًا ونبيلًا، توقف الرد في حلقي عندما كرر سؤاله:

- مالك؟

- هل أنت سيف باشا حقًّا؟

- أسألك فترد عليّ بسؤال؟ وبرغم ذلك سأجيبك. نعم اسمي سيف. وباشا هذه مزحة أطلقها عليّ مدير المستشفى وذهبتْ لحالها.

- وهل أنت من يُقيم العقاب؟

- أسئلتك كثيرة.

قال وهو يبتعد عني كشبح مسّني تأثيره ثم هم بالانصراف. جذبته من ذراعه ليظل معي قليلًا، فقال بعد ابتسامة بددت هواجسي:

- في هذه الدنيا من يستحقون أن نزرع لهم الورود، وهناك أيضًا من يستحقون قطع الرقاب.

أمسكت بكفه الكبير وفردت أصابعه القوية ونظرت فيها مليًّا وسألته:

- هل يمكن لهذه اليد الطيبة أن تتلوث بالدم؟

رد وهو يرعش عينيه بخشوع رقيق:

- اليد الطيبة لا بد أن تتلوث يومًا ما بالدم.

- وماذا فعل أبي لتشطره وتجعل كل جزء منه في واد؟

- من يكون أبوك؟

- سعيد إبراهيم.

أخذت ملامح الرجل هيئة جادة والتفت إليّ بكل جسده، ثم أخذ شهيقًا عميقًا وقال:

- بص يا بُني أنا لا أعرف أسماء. ولكني نذرت نفسي لله، أفعل فقط ما تُمليه عليّ خلقتي المتديّنة.

فقلت ودماغي منشغل بهدف واحد:

- ألا تعرف شيئًا عن أبي؟

لم يرد سيف باشا، أخذني من يدي كصاحب محل يهمّ بتفريج زبون على بضاعته، سرنا في طريق طويل يتبعه ممر، اجتزنا العنابر جميعها، عبرنا أعمدة الإضاءة التي لا تضيء، وقفنا أمام بوابة داخلية لكنها كبيرة جدًا مقارنة بأبواب العنابر، كنا بالليل، وفي الليل تخف الروائح، تتسكع رائحة البيتادين والمطهرات. رأى الحارس ملامح الباشا تقترب فسحب الباب الحديدي الثقيل ولفّ على بكر مزروع في الأرض، كان مثبتًا بعجلات كبيرة في حلق حديدي بعيد المنال. ما أن اجتزنا البوابة حتى رأيت نفسي في مكان غريب، تتحرك فيه أجساد كثيرة بلا رؤوس، ترقص كديوك مذبوحة، لم أستطع الانتظار طويلًا فسألت سيف باشا:

- لماذا تتشنج هذه الأجساد هكذا؟

- هي لا تتشنج. بل تَذْكُر.

كنت أنا وسيف باشا فقط نحمل رؤوسنا فوق أكتافنا، أما الناس بالداخل فينعمون بالحركة في كل الاتجاهات لكنهم مقصوفو الرؤوس، عبرنا الأجساد فظهر الرجل مهيب الردفين، وأصبحنا ثلاثة بجميع الكماليات، كان يؤمّهم في الصلاة، وقف بين أجساد تشبه بعضها بعضا حد التطابق، وفي مكان العنق المجذوذ تشرئب عروق بارزة ومُنفرة. طلب مني سيف باشا بأدب أن أقوم للوضوء ففعلت، وعدت لأجده واقفًا بين الأجساد كشخص تقي يحرص على إقامة الشعائر، صلى خلف الإمام مهيب الردفين، ثم جلس كأي مؤمن صالح يستمع لدرس الوعظ.

كانت الأجساد فاقدة الرؤوس مجرد كُتل من لحم، كصناديق لا توحي بشيء، لا يتكلمون، ولا أعرف بأي عضو يسمعون، وكيف يتأففون من الروائح الكريهة أو يثنون على أريج عطر، كيف يندمجون مع بعضهم؟ هل أصبح لهم مجتمع مستقل فيه يعيشون ويشعرون؟ بعد تسابيح المساء وقف سيف باشا وأشار لي بطول ذراعه على الأجساد التي تتحرك في كل اتجاه وقال:

- انظر. انظر جيدًا.. إنهم يمكنهم التكاثر وإنجاب ذرية بنفس الشكل، بدون رؤوس.

كانوا يجلسون معنا ورؤوسهم في أماكن أخرى. أبدان تَحَكّمها في نفسها غير محسوب. انشغلتُ بِعَدّهم، واحد، اثنان، خمسة، خمسة عشر. وقف الباشا وربت كتفي وقال:

- لا تتعب نفسك، أربعة وستون بدنًا.

- وأين أبي بينهم؟

- من يكون أبوك؟

- سعيد إبراهيم.

- أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

* * *

ماتت أمك على غير توقع بالمرة، في لحظاتها الأخيرة أوصتك بأن تذهب لزيارة أبيك، وصفتْ لك المستشفى وطريقة الوصول، وظلت تؤكد عليك وهي تمد يدها بالساعة القديمة أم عقارب؛ والتي تعمل بنبض القلب:

-لم يعد لأبيك غيرك. اذهب إليه ووده.

وبقيت جدتك تتفنن في إزهاق روحك بالبطيء، فطلباتها لا تنتهي ولا تستطيع التوفيق بين ما تقوله وما تريده بالفعل. قبل أن تفيق من صدمة موت أمك، كانت جدتك تجري وراءك وفمها مفغور قاصدة ذراعك، جريت منها مرات واصطدمت بالكومودينو، وقعت بقايا الطعام وفوارغ الأدوية وطبق العسل الأسود، تركْتها وأنت تُسرع بخطى واسعة إلى باب البيت.

بعدما نجحت في الإفلات من براثن جدتك طَنّ بداخلك سؤال كأنه الوسواس: لماذا ستذهب إلى المستشفى لتبحث عن شخص لا تعرفه؟ حاولت أن تبعد شبح اليأس قدر استطاعتك. وبما أن أمك قد تركت العالم منذ ساعات فقد حاولت أن تفعل ما يتناسب مع شخص لم يبرد جثمان أمه بعد. على الأقل تنفذ وصيتها، فقبل أن تُغمض عينيها قالت

في تحديقتها الأخيرة:

-أبوك يرقد في المستشفى وحيدًا. اذهب إليه. ستتغير حياتك عندما تتعرف عليه.

ثم صمتتْ بعد ذلك للأبد.

غيرتَ ملابسك وخرجت، وفي الميكروباص سألت السائق عن طريق المستشفى، قال إنها بعد آخر الكوبري بقليل، وأضاف، وهو يركن لكي تنزل، أن المستشفى قد تغيّر كثيرًا، فقد تولى أمره حراس جدد.

وما أن لمست قدمك الأرض حتى داهمتك همّة مفاجئة لعبور البوابة الكبيرة السوداء.

القسم الثاني

الخروج

-١-

أيـن أنـا؟ أنـا، للكلمـة وقـع الوجـود الفعـلي، عـلى غـير مـا أشـعر بـه بالمـرة، رقبتـي لا تـزال مدفونـة بـين منكبـيّ، تحمـل رأسي، رأسي، تسـلل إليـه شـعاع ضـوء، شـقّني، فانفرجـت رؤيـة كخيـوط حليبيـة تجتـاز سـديمًا أسـود.

أصبحـتْ السـماء قريبـة، تـكاد تلمسـها يـدي، هـل صِرتُ عملاقًـا أم تحولـت السـماء لخيمـة؟ أول مـا فتحـتُ عينـي رأيـتُ النجيلـة تلمـع في الشـمس تحـت قدمـيّ، كمنثـور ذهـب تُلقـي بـه أشـعة بـلا حسـاب. بـدت الأشـجار أكثـر طـولًا مـن المعتـاد، كأنهـا تحـاول الابتعـاد بأغصانهـا عـن روائـح المستشـفى الثقيلـة، هـل ارتـوت جذورهـا بالمحاليـل وتشـبّعت بعظـام الموتـى؟

حـلّ يومـي الثـاني، وأنـا قابـع داخـل البوابـة، وعندمـا أيقنـتُ أن الخـروج مـن هنـا أصبـح فكـرة لا طائـل منهـا، قلّـتْ مقاومتـي بشـكل كبـير، كنـت أحـاول التمسـك بحيـاتي السـابقة، تمـددت ذاكـرتي حتـى كادت أن تصبـح كل شيء، أمـا مـا أنـا فيـه فـلا يخـرج عـن أحاسـيس مفرطـة في الخـدر، أشـعر بـأني في حلـم طويـل، صـور متواصلـة تتقافـز إلى ذهنـي بـلا تحكّـم، يُهيـأ لي رؤية أشـخاص لا يقتربـون منـي بشـكل كامـل، يتحدثـون وكأنهـم في بحـيرة، تتكسّـر أصواتهـم، وتهتـز صورهـم، وأراني عـبرتُ الواقـع لا البوابـة، وصِرتُ في حلـم، مـا لم أكـن أسـتطيع تحقيقـه هنـاك في أرضي البعيـدة يمكنـه التحقـق هنـا، حيـث الأرض غـير مسـتوية وفاقـدة للجاذبيـة، والـرؤى تزخـر بالألـوان والرمـوز، ومـن أمـرٌ

عليهم ليسوا سوى كائنات لها حقائقها الخاصة، حقائق ربما كانت تحدث على أسطح كواكب أخرى، من حولي يتحرك الناس بالتصوير البطيء، لا يعلّقون في معاصمهم ساعات، يتجولون من حولي بلا أبعاد، كرسوم بالماء فوق حائط شفاف.

كان الهواء متجمدًا، لا يهتز غصن، ولا تطرف ورقة شجر. جفناي، كأن فوقهما رصاصًا مصبوبًا، منجذبان لأسفل، وعيناي بين الرؤية والغيبوبة تائهتان، وغبار معلق في الهواء، يتسرب ضغطه لحاسة شمي، يحشو حلقي، مشبع بروائح العطانة، دمعت عيناي وسال من أنفي المخاط. أسندتُ ظهري على جذع شجرة من الأشجار العالية خلفي وغِبتُ، أصبحتْ عيناي دائرية الرؤية، والرؤية فيها دخان أبيض محبب لتغذية الكسل، يدعمه ضباب يُعطي الدخان بُعدًا فلكيًّا، والضباب في زجاجة، والزجاجة كأنها كوكب شفاف يلف في المدارات. مرت الأحداث أمامي كمراكب طيفية، تمشي في بحر مستدير، على حوافه ثلج هش حديث التكوين، مفروش على شكل كثبان. الآن، كل ممنوع يمر ويعبرني، يناجيني برقة المراودة لا عنف الحُرمة، الكائنات التي تخطر أمامي رقيقة وغير مفضوحة، لا تعرض نفسها بقدر ما تنساب كتسلل الأكسجين بين عناصر الهواء، في هذه الحياة كانت ممارسات لمس الأجساد وعادات قطف الزهور متكررة، بلا عدد، بلا ثمن، حتى القتل، لا يُشكّل نهاية، فالكائنات المطعونة تظهر في صور جديدة وكأنها تلعب، تعود للحياة وهي أكثر قدرة على فهمها.

كان اليوم على وشك الانتهاء، هل نمتُ كل هذا؟ صحوتُ على إحساس قوي بالجوع، أريد أن آكل شيئًا مسكّرًا، مشبك مثلًا، شمس الظهيرة كانت قاسية، والرطوبة تجعل العرق ينز كالصمغ. لم أغيّر ملابسي طيلة الأيام الفائتة، هل هي أيام منفصلة، أم كانت ملضومة في أسابيع، والأسابيع تابعة لأشهر، والأشهر في ذمة عام واحد منصرم، بالخارج، خارج البوابة كنتُ أهتم بعيد ميلادي، كل سنة على ما أعتقد، سنة، نعم، كل سنة وأنت طيب، كانوا يقولون وهم يحملون الهدايا وصناديق المقالب الصغيرة.

لم أتم ساعة مكتملة النعاس، شاركتُ حسن سريره الحديدي الصغير، وغطاءه المهلهل منهوش الحواف، وبرّاده متعدد الوظائف، كانت حياتي داخل البوابة كأنها حدثت بالفعل من قبل، ولا أقصد بكلمة بالفعل أن لها حقيقة تاريخية، ولكنها حدثت هناك، في حياة أخرى مفترضة لم يأت دورها بعد. كنتُ أعصم نفسي من الاعتراف بواقعي عن طريق اختراع بدائل جاهزة، هذه طريقة تريحني، تتوافق مع خلقتي الخيالية الحالمة، كنت أرسم سيناريوهات متعددة لما يمكن أن أفعله، ولا أفعله، فأكون بذلك قد جنيتُ الحسنيين، تملكني إحساس الفعل دون أن أفعل، وكذلك أهرب من العقاب لو كان الفعل مشينًا. لطالما جعلت من خيالي مملكة لا تحدّها حدود، أسبح في الماء وأربط قارتين بفتلة، وأطير في الهواء متتبعًا ضوء النجوم، وأزحف تحت الأرض لأقتفي أثر أسلافي. باختصار صِرتُ أختار حياتي التي أرغبها أولًا، ثم أُجبر الأحداث أن تتبعني.

لوهلة، تركزتْ في دماغي فكرة الخروج، ولكنها كانت مرتبطة بأبي، بالأدق، مرتبطة برغبة عارمة في استعراض بطولي أمام أبي، فذلك لا يقل أهمية عن فكرة الخروج ذاتها، أن يعترف أبي بنجاحي في شيء ما مهم، فالآباء غالبًا لا يعترفون بتفوق أبنائهم على نحو لائق.

لطالما أحسستُ بأني أتفتت، أفقد وزني وثباتي، تُغير على خيالي بعض الأفكار المتشائمة، فقبل المجيء إلى هُنا كنت أشعر بأني كريستوفر كولومبوس، بل أفضل منه حالًا في بعض لحظات الشرود المتفائلة، فهو اكتشف عالمًا جديدًا، أما أنا، فاخترعته، ولكن بعد دخولي من فتحة البوابة شعرتُ بأني جندي بائس زجوا به في حرب خائبة لا تناسبه، كنتُ أرى جميع المشاهد وكأنها فيلم سينمائي نُزِع عنه شريط الصوت، فأعاد يتدوير الأحداث من خلال الصورة فقط. وبدأتْ أذني تتنازل ببطء عن خصائص السمع، وعيني تجاريها في ابتلاع كل ما يقابلها من مناظر وألوان.

غمرني العرق شيئًا فشيئًا، شعرت بدفء، ولفحني هواء، بارد ومنعش، مرتْ عليّ بعض شخصيات أعرفها، وبعض ناس لا أتذكر ملامحهم، مروا وهم يرفعون بيارق ملونة، وهُيئ لي بأني اندفستُ بين أجسادهم المتلاحمة، إذ كانوا يغلقون البوابة التي دخلتُ منها ولا أتذكرها جيدًا. من ثغرة صغيرة رأيتُ نورًا، ونتفة من ملابس رجل الأمن، قاومت الغرق في الأجساد وكثافة اللحم ورائحة العرق، وفُزتُ بعد جُهد بتوسيع الثغرة قليلًا، حتى أصبحت بالخارج، أنا الآن بالخارج، وبعد أن تركتُ البوابة الكبيرة السوداء قال لي أحد

الحـراس قبـل انتعـاشي بفرحـة النجـاة:

- تَذَكر يا أخينا. إذا ذهب الألم ستذهب معه الشهية.

لم أعـره أدنـى اهتـمام، انشـغلتُ فقـط بتخيـل نفـسي وأنـا خارج البوابـة مـرة أخـرى، حاولـتُ نسـيان كل شيء، كأني كنـت في عربة قطـار وجـاءت محطـة النـزول، بالطبـع سأنسـى الـركاب القدامـى بسرعـة، كانـت الأفـكار في دماغـي لا تـزال تنفـث بخـارًا، ولكني برغـم ذلـك حاولـتُ نسـيان كل مـا مـر مـن أحـداث.

بالخـارج، ومـن زجـاج نظـارة مغبّشـة حملـق فيّ شـخص لا أعرفـه، كانـت نظراتـه ثاقبـة وإشـاراته عصبيـة وفي يـده جريـدة، لم تكـن المصابيـح تـضيء بالخـارج، فصنعـتْ الظـلال غيامًـا عابـرًا، ومـن النـاس تكونـتْ كتـل تـروح وتجـيء، روائحهـم تتسـكع وتلعـب مـع الألـوان، وأعمـدة الإضـاءة ترتجـف كعـين مطروفـة، تشـاور نفسـها في نيـة الإضـاءة، حـواف الأرصفـة ظهـرتْ عـلى خجـل، وأطيـاف باعـة البيـض والصميـط والزيتـون، الرائحـة الوحيـدة التـي تشـكلت وامتزجـتْ هـي رائحـة الانتصـار بإفـلاتي مـن قبضـة الحـراس.

ابتعـدتُ نسـبيًّا عـن البوابـة، والرجـل الـذي اختـارني مـن بـين الخلـق أجمعـين لم يُنـزل مـن عـليّ نظـره، ولم يرمـش، انتظـرت خرخشـة الجريـدة التـي يمسـكها، سـيطويها ليعلـن انصرافـه، ولكـن الجريـدة لا تـزال مفتوحـة عـلى صفحـة الإعلانـات المبوّبـة، مطلـوب فـورا.. للـشراء بـشرم الشـيخ.. بمرتـب مغـرٍ.. بمؤهـلات أو بـدون.. سـيارة فيـات اسـتخدام طبيـب.. أول يـد..

تسـلل رذاذ ميـاه منعـش إلى خياشـيمي مـن خرطـوم في يـد عجـوز يـرش الأرض. ابتعـدتُ عـن البوابـة والرجـل صاحـب

النظارة والجريدة من خلفي يسير، كدت أسأله عن سبب تعقبي، ولكني تراجعت عندما عقدت مقارنة سريعة بين حجمه وحجمي، سيكون الهلاك مصيري بالطبع عند أي اشتباك فعلي، شعرت بدوار ممتد، وكأن دماغي يحوم في مدارات بعيدة، أو يقف عند تخوم كوكب المشترى.

لم يحدث في رحلتي شيء آخر يستحق أن يُذكر إلا عندما التفتُ لملابسي، أنا، صانع الملابس، أنا، عمر الترزي وصاحب محل أزياء الشرق، كان ذلك في زمن لا أستطيع تذكره، كانت ملابسي رثّة بشكل فاجأني، وكأنها مصنوعة من مادة القذارة نفسها، كلها ساعات قليلة وأذهب للبيت، البيت، نعم، من المؤكد أن لي بيتًا. ولكن الرجل الثابتة عليّ بصّته لا زال يجد فيّ ما يغري تأملاته، كأن سائلًا شفافًا من الغراء يجذبه ويُجبره على الحملقة تجاهي بهذا الشكل المريب.

شعرتُ بملمس ناعم كالقطيفة عندما تذكرتُ أني نجوت من الحبسة، مر المشهد أمامي كفيلم سلقوه في المونتاج، مناظر متقطعة وسريعة، أفكارها لا تأتيني مجردة، ولكن تدعمها صورة حسية مرتبطة بالخاطر. حاولت إبعاد مفردة النذالة عن تفكيري، فأنا نجوت وحدي، بدون رفيق، أو قريب، تركتهم في حبسهم يضربون رؤوسهم في الجدران وفرحت بإفلاتي من قبضة السجانين، حتى أبي، تركتُه، للحق لم تكن نذالة، ولكني نفدت بجلدي الذي أشعر به الآن، أتحسسه سليمًا مُعافى، وأتخيله كيسًا مُعبأ بحشو، أجهزة رخوة وأمعاء تنقبض وتنبسط وقلب يدق، أنا نفدت بكل هؤلاء، الذين هم أنا، لا أعرف أنا غير هذه الأشياء التي يمكنني لمسها

ووصفها.

أعمدة الإضاءة لا تزال مطفأة، لم أر من الناس ملامحهم، فقط كنت أتابع عن بُعد الحيز الذي يشغلون، أجساد هائمة وتائهة تعبر الشوارع بنصف وعي، يمرون أمامي ولا أستطيع تحديد سرعاتهم، كانت استفساراتي جوّانية لا أنطقها، ورأسي يزخر بالأسئلة عمن حولي، من أين جاءوا؟ وإلى أين هم ذاهبون؟ لم أشعر بأني متفاعل معهم، كنت كشخص يلبس طرطورًا أحمر دسّوه بين أشخاص يلبسون جميعًا طراطير سوداء. ربما يجب عليّ الوصول بالفعل لنقطة ما، ثم بعدها يشتعل خيالي تلقائيًّا. نظرتُ في يدي فلم أجد أية أمتعة، شعرتُ بأني بقعة معتمة تهرب من النور الذي سيبيّن حقيقتها.

هدّني الإرهاق والتعب، كأني كنتُ أتدرّب على ركوب الخيل طوال الليل. كان طوق النجاة الوحيد هو خروجي من البوابة، وخرجت، وكانت البلوى الحقيقية هي بقائي داخل الأسوار، والآن، أصبحتْ البوابة بعيدة وفي حجم علبة ثقاب، والمبنى الكبير يظهر كـ"ماكيت" لمشروع في شركة تعمير، كان الناس داخل البوابة يتلقون تعليمات صارمة وينفذونها، ولِمَ المواربة؟! كانوا يتلقون أوامر لا تعليمات. يعيدون إنتاج الكلمات بحِيل وأغراض مختلفة، فإذا ما قالوا "اتق شر الحليم" فهم يقصدون أنفسهم، وإذا ما قالوا "وقودها الناس" كانوا يتحدثون عن الآخرين.

الرجل الذي لا أعرفه يسير من خلفي وكأنه يراقبني، ظل يقترب شيئًا فشيئًا حتى كاد يحفّ في ملابسي، ثم قرر

كشـف هويتـه فسـألني:

- هل أنت سعيد إبراهيم؟

- لا.

قلـت وأنـا متهيّـب، لم يكـن في نيتـي الـرد، لمحـت جريـدة مهلهلـة فقـط تهتـز في يـده، خرخشـتها مزعجـة، هُيـئ لي بأنـه فعصهـا في يـده وحوّلهـا لكومـة غـير مسـتديرة في حجـم رأس، رمـى الرجـل المجهـول في وجهـي الكومـة، ومـد يـده الأخـرى بعصـا سـوداء معقوفـة المقبـض وأعـاد عـلى مسـامعي سـؤاله:

- هل أنت سعيد إبراهيم؟

ومـا أن تجسّـد أمامـي بكامـل هيئتـه حتـى هبّـت الإضـاءة قوية مـن الأعمـدة واشـتعلتْ في وقـت واحـد، ظهـرت الدنيـا كلهـا باذخـة الأنـوار، كشـمس انفجـرت وتوزعـت فتافيتهـا الجمريـة عـلى حيـز رؤيتـي. واختفـتْ البوابـة، اختفـت تمامًـا، واقـترب الرجـل أكثـر، الضـوء الشـديد جعـل كل الأشـياء كسـحاب أبيـض مُـشرب بحُمـرة برتقاليـة تتشـعب فيهـا عـروق زرقـاء. سـألني الرجـل مـرة أخـرى:

- أنت سعيد إبراهيم. أليس كذلك؟

- لا.

- وما اسمك إذن؟

وبارتبـاك شـخص شريـف يكـذب للمـرة الأولى اقتربـتُ منـه، رمـى الرجـل العصـا ثـم لقفهـا بخفـة، وقـف يلـفّ ويـدور كراقـص يسـتعد لجولـة تحطيـب، بـدأت الرؤيـة تتضـح قليـلًا، وعـلى مهـل بانـت معـالم الأشـياء، ضحـك الرجـل الـذي بـدأتُ

تحديد موقعه في المكان، تشكلت ملامحه من حركته المستمرة، كان يلبس زيًّا يشبه "يونيفورم" ورديًا ملصوقًا على جسده، رفع يديه في الهواء، طوحهما وأخذ يطرقع بإصبعيه الوسطى والإبهام كمن يستدعي "جرسون"، بان من تحت إبطيه شعر أسود مُنفر، وبين فخذيه أيضًا، الآن أراه واضحًا، كان الرجل عاريًا، عاريًا تمامًا، ابتعدتُ عنه قدر استطاعتي وانطلقتُ أقول بلا وعي كامل:

- اسمي عمر سعيد إبراهيم.

* * *

ثم تشعر بأن جفنيك مضيئان، وأن كل الجدران من حولك لها ملمس ناعم، تخرج من مسامها أنوار خافتة وبليدة، الآن، بين الحلم واليقظة أنت، تتأمل ما يدور حولك، وكأنك تؤسس لموقف جديد سيتغلب على كل ما مر من أحداث، تُشبه حياتك شبكة رميتها لجمع نفائس الأسماك فحصدتْ مخلفات البحر، طال صبرك وأنت قابع خلف البوابة في انتظار الفرج.

وترى بعينك التي سيُقرقض فيها الدود، طابور الزائرين الذين دخلوا المستشفى بكامل إرادتهم قبل أن يكتشفوا أنهم محبوسون. ثم أظلمت الساحة الكبيرة ولم تر إلا حيز الناس يتحركون في كل اتجاه، بشر جاءوا من كل الأماكن، مشكلتهم الوحيدة أنهم يريدون علاجًا، أو يزورون أقارب يحتاجون لمن يعودهم ويعطف عليهم، فوجدوا أنفسهم تحت حُكم الحراس الجدد، كان حُكمها ظاهره الرحمة والكلمات الفضفاضة

عن الروح والجسد والمبالغات الفلكية عن السماوات السبع والأراضين السبع، وحكايات موصولة عن البؤساء الذين لم يسعفهم الحظ بأن يكونوا مؤمنين، أما باطنه فيشهد عليه انشطار أبيك.

أسبوعان قضيتهما في صحبة الحراس وتوقفتَ كثيرًا أمام ما يشغلهم، ما يملأ أدمغتهم لا يمكن رؤيته إلا بعين الخيال والحدس، فكل ما يهتمون به هو خارج نطاق الكرة الأرضية. أحدهم تحدث معك طوال نصف يوم عن الخلق الأول منذ سيدنا آدم مرورًا بسيدنا إبراهيم وسيدنا نوح وسيدنا موسى، إلى آخر طابور قدامى الصالحين الذين كانوا يتميزون بكاريزما معينة لا قِبَل بها لبشر عادي مثلك ومثله، اجتهد الرجل في الحصول ولو على قطعة من أطلال الكاريزما لحسابه، ولو حتى ستقتصر على نظرات الإعجاب به أثناء الحكي، ولكنه كان غشيما وبعيدا كل البُعد عن أي نجومية، وبعد أن فشل في إيجاد شيء يبهرك به صمت، ثم استعاد الكلام مرة أخرى، ولكنه تجاوز الفترة التي تعيشها وقفز قفزة واسعة جدًا، حيث وصل مباشرة إلى يوم القيامة، وصنّف الناس على حسب رؤيته ما بين صالحين سينعمون وفاسقين سيشربون المر ويذوقون العذاب والحميم، وبذلك فقد قسّم الحياة الطويلة العريضة لمرحلتين فقط، خلق آدم ويوم القيامة، وتحاول أن تنبهه لأن الفترتين بينهما فترة مهمة جدًا لا يمكن إسقاطها أبدًا، وهي المرحلة التي تعيشونها الآن، الفترة التي أعطته الأرض فيها فُرصة الوجود وموهبة الكلام، ولكن عبثًا حاولت، وعبثًا رد:

- هذه مرحلة تافهة. حدثني عما هو أهم. أهم يا أخي.

وكنتَ تصرخ بالليل وأنت تقول:

-أنا هنا. أعيش وأتنفس وأحلم. أنا عمر سعيد إبراهيم.

وتترك الخيزرانات بصماتها على جسدك، وليلتها لم تنم، ليس بسبب الأرق أو الصداع، ولكن بسبب الضرب تورّم كل جسدك، وقبل أن تنام جاء شخص منهم لا تعرفه وداوى جروحك برقة متناهية واعتذر عما قاله زميله.

ثم ترى كيف رسموا الخطة لإخراج الناس من هنا، خطة تبدو من إنتاج قريحة بدائية، ففي اليوم التالي نودي عليك في كشف يمسكه الرجل الذي كان يعذبك بالأمس، ووجدت نفسك ضمن فريق كبير مِمَن هم في نفس حالتك أو يقاربون، رصّوكم في طابور طويل خلف البوابة، رأيت المنظر بوضوح للمرة الأولى منذ مجيئك إلى هنا، وكان يقف بجوارك زملاء في الحبسة أكل منهم الخيزران الرفيع وشرِبتْ منهم الكرابيج المنقوعة في الزيت، كانوا يمشون بعجز ويتمايلون كبيوت صغيرة يهزها زلزال. وبعد أن تمم عليكم أمام البوابة وقف رجل بدين جدًا تقبّ إليته من الخلف بوضوح، ويعلو كرشه من الأمام، لا تستقيم له جُملة بسبب النهجان، ولا يستقيم له عود من جراء الرعشة المتواصلة وعدم التحكم في أعصابه، كان مجرد سحب الشهيق يجعله شبيها بالهوّاية الريش التي كانت ترقص على رؤوس السلاطين القدامى، ولكن من مهابته كان يبدو الرجل حائزا في المستشفى على مكانة ما، اقترب من الطابور المُكوّن من عشرة أشخاص وقال:

- هكذا حاولنا إصلاحكم. وهكذا فشلتم في رؤية ما نراه، حسّكم وعينكم أن تتكلموا عن فَشلنا نحن، ولكن تذكروا جيدًا بأننا حاولنا كثيرا. وأننا في يوم ما سنقف جميعًا أمام أعمالنا.

بدأ صوت الرجل يأخذ منحى تدريجيا للسخافة. الشمس متعامدة عليكم تفككت ارتباطات الكلام في دماغك من سخونة الجو، وشعرتَ بِحَوَل مفاجئ، وقبل محاولة استيعاب التعليمات أضاف الرجل:

-لقد قررتْ إدارة المستشفى أن تتركك تخرجون، ولكن بشرط.

وجمتم جميعا وكبست على نفوسكم طبقة ثقيلة، توقفت صدوركم عن التنفس وأرهفتم السمع فأكمل البدين:

- ستتكفل بتمزيق كل ما عليكم من ملابس. وستخرجون من هنا عرايا كما ولدتكم أمهاتكم.

-٢-

بعد أن رأيتُ ما لا يجب أن يُرى في الرجل توقفتُ قليلًا، لعلي أحلم أو التبس عليّ الأمر، أو اختلطتْ الحقيقة بصور مُتخيلة، تأملتُ الرجل الذي لم يبدُ عليه التعجب. نظرتُ للابسي وتفحصتها، شعرت بأني مخلوق رخو يتقوقع داخل صَدفته، أو أنني لا علاقة لي بهذا المكان، ربما استنبتوني في مكان آخر وجئت إلى هنا كديكور أو ورد زينة. أقف حائرًا وأنا أحاول اقتناص اللحظة. احترتُ وشعرتُ بتفاهة أسباب وجودي، إحساس يصعب وصفه. جمّعتُ شجاعتي ووقفت أتحسس ياقة قميصي، وبرغم قذارتها فحشوها متماسك، والجاكيت "الفايبر" من فوقه يفي بالغرض، فالملابس التي تمنع البرد تمنع الحر أيضًا، هكذا كانت تقول أمي.

كان بنطلوني متسخًا ومجرّحًا لدرجة يصعب معها معرفة لونه الأصلي. وكانت عباراتي الداخلية التي هي قيد التشكّل مسكونة بالهواجس، فالرجل لم تتحرك فيه شعرة، لدرجة جعلتني مُحرجًا له، كيف كان يقرأ الجريدة وهو عارٍ بهذا المنظر؟ لم ينتظر حتى تختمر الأسئلة التي أعددتها له داخل دماغي، ولكنه هجم عليّ وباغتني بسؤال:

- متأكد من أنك لست سعيد إبراهيم؟

- نعم. أنا لستُ هو. ولكن لماذا تسأل؟

كانت إحدى قدميه مُعلقة على الرصيف ومدسوسة في فردة حذاء واحدة، أنزلها واستوى عوده الضخم في وقفة مستقيمة ثم هجم عليّ كمن سيُحرر رهائن وقال:

- سعيد هو الأمل الذي انتظرناه كثيرًا خارج البوابة.

لم يكن هناك سبب وجيه واحد لأن أصدقه، خاصة وأنه كان يقول كلامًا محترمًا ورصينًا بينما هيئته نابية، اتكأ الرجل العجيب بمرفقه على كتفي وكأننا صرنا صديقين، ثم قال بنفس نبرة الصوت الفخمة:

- سعيد إبراهيم تحمّل الكثير من أجل الناس العادية أمثالي وأمثالك. فهل يكون جزاؤه بعد ذلك ألا أسأل عنه؟

عندما كرر الرجل اسم أبي ذكرني بأني متناهي الصغر، فهذا الغريب يسأل عنه، بينما تركته أنا خلف الأسوار ولم أفكر إلا في نفسي، ربما كان هذا الرجل مبعوثًا لإيقاظ شموخي الذي انطمس في أزمنة غابرة؟ ولكن لماذا كل هذا التركيز معه، يمكنني الانصراف عنه وعن منظره المُخزي هذا، ويمكنني أيضًا الابتعاد عن هذه المنطقة والبحث عن أجواء جديدة أرتب فيها لترك هذا العالم العجيب للأبد، فالوجوه التي أراها ليست جديدة، حتى ولو أقابلها للمرة الأولى، تبدو مُكررة ومرئية لآلاف المرات، كالطعام الممضوغ سلفًا. لكني برغم ذلك لم أستطع الهروب، أصبحت متورطًا بشكل ما.

كلما لمحتُ الرجل العاري اختلط الجد بالهزل في رأسي، لا أدري هل أضحك على منظره أم أتوقف أمام الأسباب التي أوصلته لذلك؟ أحسست بأن محاوراتي الداخلية أكبر من أهمية المشهد بالنسبة للرجل، فقد كان أليفًا إلى حد كبير، يهرش بين فخذيه فتترجرج بضاعته كعجين خمران، ويهتز نهداه الكبيران المرقطان بالنمش، لم يعد باستطاعتي تخمين ما سيحدث بعد دقيقة واحدة؟

كانت الصورة بالكامل مُضببة كدخان تحت المصابيح، أو كالدخول على عتبات حلم، لم يعطني الرجل العاري فرصة لكي أختلي بنفسي، رفع عصاه للسماء، تيبستْ يده لحوالي دقيقة كاملة على هذا الوضع ثم قال:

- السماء أعطتنا سعيد. سيدنا سعيد. ونحن نرفض العطية. تخيل؟

لم أرد. توقفتُ عن الكلام محاولًا تدبير كلمات تجعل هذا الكائن ينصرف عني، لكنه استغل صمتي وانفتح:

- البشر ظالمون. كلهم ظالمون. حتى أنت وأنا. ظالمون. تخيل؟

قال الكلمتين الأخيرتين وكأنه يتابع أطيافًا وهمية مرسومة أمامه على الهواء، ثم كشر تكشيرة شخص جرد دكانه فاكتشف خسائر فادحة. لا إراديًّا كنت أقارن في كل دقيقة بين ملابسي وعُريه، أقارن بين جاكيتي "الفايبر" ولحمه المكشوف للذباب، أدار الرجل لي ظهره وهمّ بالانصراف.

كان يتحدث عن شخص آخر غير أبي الذي رأيت، وكنت أفوّت له كلامًا كثيرًا، وكأن ما أنا فيه هو نتيجة طبيعية لثورة الزمن وانفلات العقارب من تروسها الدوّارة، فقد كان بعُريه هذا يبدو كما لو أنه سقط من ثقوب عصور غابرة.

اتكأ الرجل بمرفقه على كتفي مرة أخرى وكأننا صرنا صديقين من جديد، ثم رفع زوايا فمه كأنه يستعد للابتسام، ولكنه تراجع ولم يبتسم، أخذتْ ملامحه شكلًا صارمًا وهو ينظر إليّ نظرة شفقة ويقول:

- لماذا تقف أمامي هكذا. عاريًا؟

* * *

ويقترب منكم الرجل السمين وهو يمسك بمشرط جراحي، تظن بأنه سيشق جلودكم، تبددتْ المخاوف عندما مد يده لأول شخص في الطابور وشق قميصه من قُبته، بعد الياقة بقليل سرح المشرط فجعل القميص كضلفتين تم فتحهما على المِصراعين، فقال الرجل المذهول وهو يشير إلى زرايرِ قميصه:

- يمكن فتح القميص في أقل من دقيقة، لا داعي لتعبك.

وعندما بدأ تخليص الزرايرِ من العراوي أمسك الرجل صاحب المشرط بيده وقال:

-ليس المقصود هو خلع الملابس. ولكن تدميرها قبل حرقها. لكي تمشوا في الأرض بسوءاتكم ولا تجدوا من يستر عوراتكم.

صمت الرجل وكل منكم تخيل نفسه واقفا ينتظر استكمال توقيع العقوبة، كانت الوقفة مُهينة، ولكن الرجل طأطأ رأسه ومط شفتيه وأغمض عينيه، لم يفق إلا بعد أن سأله صاحب المشرط:

- ما اسمك؟

- فريد.

- بعد قليل ستكون فريدًا بحق. انتظر قليلًا.

عندما انتهى صاحب المشرط من شق قميص الرجل فعل نفس الشيء مع فانلته المخرمة البالية، سحبة واحدة

تَبِعَها صوت تمزيق كأزيز سرب ذباب، انتهى صاحب المشرط من الجزء الأعلى ورماه كبداية لكومة ستتجمع فيما بعد، وجاء دور الجزء الأسفل، خلع عن البنطلون الحزام أولا، ثم لفّ على كفه جزءا كبيرا منه، وعندما تمسك الرجل ببنطلونه أوسعه ضربا بالحزام الذي كان يزّين خصره منذ لحظات، همدتْ عزيمة صاحب المشرط وتصلّب الرجل نصف العاري، أصبحتْ إرادته خارج نطاق الخدمة، تخلت عنه وتحول بعد انصياعه لشيء لا روح فيه. ضرب الرجل الغاضب مِبضعه في كمر البنطلون، ثم شد يده بخفة فتهلهل الكمر والجيب حتى قدمي الرجل، سَلَتَ البنطلون بسهولة وكأنه يقشر إصبع موز، لم يتبق للرجل إلا لباسه الدمّور. في البداية، قاوم الرجل، سحب قطعة القماش الصفراء المتسخة التي تستره، ولكن أول ما رأى المشرط يقترب من عينه عاد صاغرا لسيرته الأولى، وضرب الرجل الموكل إليه تعريتكم اللباس فسقط كقشرة ترمس تخلّت عن حبتها، ووقف الرجل عاريا، ولكن ليس كما ولدته أمه، بل أبأس حالا وأرثّ هيئة.

كوّم صاحب المشرط ملابس فريد وأخذ يساوي بينها ببوز حذائه، تجرد زميلك من أي تعريف، اسمه وسنه ومكانته، وكأن الملابس احتوت على كل الصفات، أصبح اسمها فريدا، وتحول فريد للاشيء.

ما فعله صاحب المشرط مع فريد كرره معكم جميعًا. وكان حظك لا بأس به في مسألة التعرية، فقد كنتَ الأخير، قُدِر لك أن ترى كل من في الطابور وهم عرايا، رأيتهم لمدة طويلة خاسئي النظرات حاسري الرؤية مبهوتين، ورأوك

بعريكّ مدة قليلة جدًا قبل أن ينتهي الرجل من تقشير ملابسك بالكامل.

"لمِ كل هذا النضال من أجل حياة بائسة لا تستحق المقاومة؟".

تسأل نفسك، وقبل الاهتداء لإجابة كان طابور العرايا ينتظم ويستعد للخروج.

لما تعريتم جميعًا خفّ إحساسك بأن هناك شيئا ما مختلفا، أصبحت لكم حُرية الحيوانات البرية، كان إحساسا جميلا منعشا، دفء الشمس مع تخلخل نسمة الهواء داخل كل فتحاتك شكّل شعورا لذيذا، كانت السيدات الملثمات يعانين الحر والبدانة خلف البوابة، وكان البدين فيكم يدخل له الهواء من كل الفتحات والمسام، لوهلة أحسست بأن الرجل صاحب المشرط يضمر لكم شيئا من الحسد، فقد كان يلبس جلبابا ثقيلا ومن تحته تظهر قبّة جلباب آخر، وفخذاه يحبسهما كالسون بُنّي، والحر الشديد يجعل ملامحه تنز العرق، وتنشع فوق ظهره خطوط غامقة من لون الجلباب، لوهلة أيضًا، تخيلت بأنه يتمنى لو كان مثلكم، حُرا.

قبل أن يفتحوا لكم البوابات اقتادكم صاحب المشرط في طابور جديد، وقفتم شبه ملتصقين، كل منكم يضع كفيه بين فخذيه كحركة وقائية، لكن سرعان ما تبددت الهواجس ورفعتم أيديكم عن أحواضكم، عُدتم تفعلون بأذرعكم ما كنتم من قبل تفعلون. من يهرش ومن يتحسس شعره ومن يأكل شيئا في يده، وأنت وضعت يديك في وسطك وحاولت تجريب الوضع الجديد. أمركم الرجل بعدم أخذ ملابس من أحد، حتى لو عُرض عليكم ذلك. هل تسمعونني؟ حتى لو عُرِض عليكم ذلك. قال على عجل ثم انصرف.

-٣-

تأملتُ ملابسي جيدًا، إنها برغم رثاثتها موجودة، لم تزل ملتصقة بجسدي فوق أوساخ المستشفى، أهندم القميص وأرفع البنطلون وأضبط وجهة الحزام، ماذا يقصد الرجل إذن بأني عارٍ؟ كان هو العاري ولا يشعر بذلك، لما رآني هل رأى نفسه في اللحظة ذاتها؟ لم يكن لي وسيط آخر أرى به إلا عيناي المجهدتان من طول النزاع داخل الأسوار. أحسست بأني مزنوق بين قضيبين وقد أغلق علي عامل التحويلة سنجة المزلقان، هل افتقر خيالي إلى التركيز الكامل فهيأ لي أوهامًا لم تكن في الأصل موجودة؟ بالفعل، لقد انجذبت نحو الرجل العاري وكأنه من أهلي القدامى، نوع من الحنين اجتاحني وهو يحدثني بثقة مزعومة.

كل ذلك يحدث غالبًا بسبب الإرهاق. فأنا لا أزال واقفًا أمام البوابة، هل توصلوا عن طريق حزمة من الحيل البارعة في هز ترتيب الزمن؟ هل يمكنني أن أستوعب عُمرا في ساعة واحدة على الأكثر؟ لماذا أستسلم للوقوف أمام شخص عار لا يدري لماذا وصل لهذه الحال؟ كنت كمن يرى العالم عبر ألواح زجاجية تُكسّر الضوء وتُفتّت الأصوات.

لو وقع بين يدي الآن مصباح سحري سأطلب منه مطلبًا واحدًا لا غير، أن أتكلم ويسمعني أحد، ينصت إليّ شخص واحد يهمه كلامي، كانت تسكنني تُخمة تعبيرية، فائض من الأوصاف والتشبيهات يكفي ألف كتاب، وكبت في التعبير يضعني على حدود سديم جهنمي من العدم المطلق، كنت

أود لـو يصـل صـوتي خـارج حلقـي ثـم ينتـشر خـارج مسـكني، وبعـد ذلـك يسـتحوذ عـلى مسـامع مـن هـم وراء المدينـة، ثـم المحافظـة، ثـم خـارج حـدود الوطـن، ثـم الوطـن العـربي والكـرة الأرضيـة، ثـم يتفـوّق صـوتي عـلى الجاذبيـة والغـلاف الجـوي، يتجـول ليصاحـب الكواكـب السـيارة ويتفتـت بـين المجموعـات الشمسـية اللانهائيـة، وينتـشر بعـد أن يخـرج للـبراح الكبـير، ويطـوف بـين حِـزم المجـرات، ثـم يصـل سـاكنًا مسـتقرًا بـين مسـام الغـازات وركام الفتافيـت الكونيـة التـي لم تحصـل حتـى الآن عـلى مُسـمى بـشري. هـذا مـا يسـتحقه صـوتي، مـا يسـتحقه تمامًـا.

كنـت كمـن يصـارع كابوسًـا ويجتهـد في الاسـتيقاظ، أفتـح عينـي عـلى المصراعـين، أحـدِّق بقـوة فـلا أرى شـيئًا جديـدًا عـما رأيتـه مـن قبـل، فأهـرول هربًـا مـن الأحـلام المزعجـة لأقـع في شَرَك حيـاة باهتـة لا معنـى لهـا، يغلقهـا بـاب واحـد موصـد باسـتمرار، وكلـما حاولـتُ فتحـه ليُدخِـل سـلخة نـور وخزتنـي مسـاميره الكثـيرة، مسـامير تُكـوّن الدقائـق والسـاعات والسـنين، وعندمـا أتـرك البـاب تنغلـق السـلخة بنورهـا وأعـود كـما كنـت أبحـث عـن مخـرج.

تـدور الأفـكار في خيـالي كمفـردات لغـة غريبـة، أجهـل فيهـا التراكيـب والأفعـال، أشـعر بـأن شـخصًا غبيًـا يحدثنـي سرًا عـن أشـياء غـير مترابطـة، فيتفـوه بـين الحـين والآخـر بشـذرات مـن لغـة ربـما أعرفهـا، أو تُهيـئ لي ربكتـي ذلـك، وكانـت المعضلـة هي غربلـة كل الـكلام وتركيبـه مـن جديـد. كنـتُ خفيفًـا، كحلـم يقـاوم تفسـيرات الواقـع، فالوضـوح، حتـى في الضـوء مزعـج، تحتفـي الأحـلام بالظـلال ولا تنشـغل بأصولهـا، تكتسـب قيمتهـا

من غياب النشاط العقلي، فهذا الأخير يكون مخدرًا، تحل عني الجاذبية وأصبح كالريشة، لا يتحمل عقلي في الأحلام عبء الأفكار، ولكنه يسعى دومًا للتخلص منها عبر الرموز، فأصحو خفيفًا وفارغًا قبل أن أتلوث بأفكار جديدة، أتمطّع، أشعر بأن في حوذتي أفكارًا جديدة لا يستوعبها عالمي، تطل دائمًا على فناء واسع، أوسع قليلًا من مجرة.

عندما فاجأني الرجل صاحب الجريدة بعريي توقّفتُ عن التفكير للحظات، تخوّفتُ من أن يكون منظري كما تنقله إشارات مخه، مثيرًا بأي شكل، أو على الأقل مقززًا، تمنّيت الدخول في كهف على مقاسي بالضبط، ومن يرد أن يراني يراني وأنا مُغلّف بالكهف، أخشى أن أبدو عاريًا وحقيرًا، ففي الوقت الذي كنت أشفق فيه على الرجل صاحب الجريدة من عُريه؛ كان هو الآخر يشفق عليّ لنفس السبب، وكأننا فولة وقُسِمتْ لنصفين، ولكن وجهي كان مناقضًا لوجهه، فأنا عابس الملامح وهو مبتسم أغلب الأوقات، أنا أفكر في أمور عويصة وهو لا يشغله إلا سعيد، أبي.

بعد تخيلي لعريي شعرت بجسدي يخضع بشكل ناعم لتغيرات فورية، أحسست بأني متناهي الصغر، وأني أموج في سوائل وغازات وأركب على قذيفة مدفع، وكأن معادلات جديدة تتخلق لتسمح بإمكانية تشويه الزمن، كان بيني وبين نفسي مسافة بعيدة، تفصلني فراغات غير محددة، وكأني بالفعل أصبحت شطرين غير متساويين، تحتجب عني معرفتي الحقيقية ببعضي، وتقف عند باب الخواطر، أشباه أفكار وبقايا أصوات تناديني بتلقائية ناعمة:

- تعال.. تعال.. اقترب ولا تخف.

كانت صورة الرجل تتكسر قبل أن تأتيني، ككتلة معتمة تقطع مسار الضوء، ولكنه برغم غرابته فقد كان يُشكّل ومضة في قلب عتمة، أو مدينة شُيدت أمامي فجأة وأنا أسير في صحراء قاحلة، صورته وهو عارٍ ترسّبتْ في قعر مخي، وفي نفس الوقت كنت أتخيل نفسي أنا العاري، هل كل ذلك بسبب تأكيده بأنه يراني عاريًا؟ ربما كان العيب في نظره، وبعد قليل سيطيب له الاعتذار وسيقول لي بصوت خجول "العتب على النظر يا أخينا"، ولكن ما أكد استحالة ذلك أنه كان مبتسمًا ابتسام المنتصرين، وجنتاه ترفعان إطار النظارة بشكل دائم، لم تفقد ابتسامته مسارها إلا عندما تأملته بقوة.

حفّت فيّ عربات أجرة كانت تسير مصفوفة، لم أرها إلا الآن فقط، وكأن شيئًا من التعمية البصرية اجتاحني لمدة طويلة من الزمن، حتى الزمن لم يعد بإمكاني استيعابه، وكأني أجلس في كابينة قيادة تسير بي، وليس لي عليها أي سلطان.

ماذا حدث منذ قليل؟ هل يمكنني استعادة المشهد من أوله؟ شقّني سيف ضوئي مفاجئ فرأيت الرجل عاريًا، ورآني عاريًا. من منا العاري، ومن منا ما زال يرتدي ملابسه؟ إحساس مُعقّد يلزمه خيال، لُغز يشحذ كل طاقته ليتجلى أمامي حقيقة تقف على قدمين، هل تولد الحقائق أم يتم اختراعها؟ كل ما ندّعي بأنه اليوم حقائق كان بالأمس فرضًا يتلعثم صاحبه في طرحه، هل يمكن العودة للوراء عبر الزمان؟ لقد رأيتُ هذا الرجل العاري وهو يدّعي عريي في مكان ما، أو زمان ما، ليست الأماكن والأزمنة التي عرفتها من قبل، لكني رأيته في مكان يشبه الحلم، وزمان يشبه ألواح زجاج مُتكسرة يغلي من تحتها ماء.

جاءني بنفس وقاره الذي لا يتناسب مع لحمه المكشوف، ربما رأيته عبر ثقب في قمر أسود، وربما لم أره حتى الآن، وما يحدث أمامي لا يخرج عن كونه نوعًا من الحدس أو التمني، وربما الاستباق بقفزات غير مرئية.

تحول السيف الضوئي إلى آلاف من سيوف ضوئية سريعة تتراشق في الأرض التي أقف عليها أنا والرجل صاحب الجريدة. اشتعل المكان بالأضواء الصادمة، كان يمكنني رؤية ذرات الغبار فوق كفي من شدة الأنوار، وكان يمكنني كذلك أن أتحول لنجم بارق بسهولة. ولكني بشكل مفاجئ رأيتهم من حولي يقفزون، ينطّون في صخب كقرود مدربة، ابتعدت بسرعة، عدت في اتجاه البوابة، تمسكت بها، التف حولي جموع يصيحون في نفس واحد:

- لماذا تقف هكذا عريانًا؟ لو أردتَ ملابسنا سنخلعها من أجلك. ولكن لا تقف هكذا يا مسكين. فرؤيتك بهذا المنظر تؤذي مشاعرنا.

لم يزعجني هجومهم، ولم يزعجني وصفهم بأني عريان، ولكن ما أزعجني حقًّا هو منظرهم، فقد كانوا كلهم عرايا لا تستر أجسادهم فتلة.

* * *

عندما طردوكم بدون ملابس خارج البوابة كنتم مرتبكين إلى حد ما، انعطفتم فانعطف معكم المستشفى، ثم اختفى المبنى خلف ظهوركم، كانت بقايا النوم تتقطر من أعينكم، وحُمرة بشراتكم دليلا على السهر المتواصل والقلق المتقطع. وقفتم تحملون في الأول طاقة كبيرة سالبة، سرعان ما تحولتْ لحركة ونشاط ربما ليخفي ربكتكم، كنتَ كمن تحالف على

تفتيت الإحساس بالوقت، أصبحتَ خارج البوابة في زمن لا يتعدى رمشة، وأحسست بأن السجلاّت التي تُخفي حقيقتك ربما حُرقت قبل قرن من الزمان، عندما كان لك جدة مُتعبة ومعها ابنتها التي هي أمك، ماتت إحداهما وتبقت الثانية، لا يمكنك تحديد مَن منهما ذهبت وتوقف بالنسبة لها الزمن، ومن منهما ما زالت تدور في أفلاك الساعات وتروس الوقت؟ ظلت واحدة منهما تتواصل مع الأخرى التي توقف نشاطها واختفت هيئتها، لم تختفِ إلا عن الأنظار، ولكنها كانت متعلقة في جزء نشط من خيالك، تأتي راكبة على حصيرة ممتدة مكونة من ثماني ساعات هي زمن النوم، تنشط الذاكرة بقوة عندما يتحرر الجسد من طاقته تجاه ما يرى ويحس، وتصبح هناك عيون أخرى ووسائط ترى كل شيء هلامي الهيئة والملمس، كانت كل الكائنات من أجسام وأشجار وألوان يمكن حملها من مكانها بسهولة، ويمكن أيضًا بلفتة على الوسادة التحرر من كل شيء ونقله بشكل فوري لمكان آخر بمنتهى اليسر، تدخل أماكن كثيرة، تقف على أرض غير ثابتة، تقول ما فيه النصيب ثم تتوه في غيامات دخان أبيض ينتهي بذيل برتقالي.

سرتم سربا من العرايا في الاتجاه العكسي للبوابة، كان لكل منكم اهتماماته الفكرية التي تشغله وتملأ فراغ الطريق.

أول ما توارد أمامك الآن كانت صورة جدتك، تذكرت الآن فقط أنها هي التي تبقت على قيد الحياة بعد موت أمك، ولكن أين جدتك الآن، هل لا تزال حية؟ مع توغلك في المسير تذكرت التفاصيل، رأيت كل ما كان وسألتَ أسئلة على قدر كبير من الإدراك، كيف أصبحتْ ترى الأذرع

المتطوحة أمامها، هل لا تزال تشتهي التهامها؟ تركتماها في مستشفى المجانين التي كانت أمك تُسميها مصحة، تتذكر جيدًا هذا اليوم الكئيب، ولكن هل جدتك لا تزال حية؟ هذا هو المهم، بالطبع لن تذهب للبيت لتكلم نفسك، هه، هل ستُحدث نفسك؟ بالطبع أنت لا تحتاج لمستشفى، ولكنك تحتاج لراحة، راحة طويلة، تعود بعدها لمرحلة ما قبل البوابة، لا تدري هل توقف الزمن بالداخل، أم مر عليك أسرع مما يجب؟ المهم، أنك الآن بالخارج، ماذا يجب أن تفعل لتشعر أنك حُر؟

بالليل كانت أجسادكم تلمع لمعة مثيرة، كأنها مُشبعة بزيت مضيء، تحررت تمامًا من ضم يديك بين فخذيك، وبالتدريج صارت وظيفة الذراعين هي التطوح يمينا ويسارا كأي رجل عادي، حاولت حدس السبب الذي لأجله جعلوك عريانا، لم تصل لأي نتيجة، فتركت التفكير في الموضوع برمته.

بعد توقفكم أمام الكوبري غاب المستشفى عن الأنظار، وبدأ كل منكم يسأل الآخر سؤالا تقليديا:

-أين طريقك؟

-بل أين طريقك أنت؟

وبدأ زملاؤك المؤقتون بالإشارة لجميع الاتجاهات في وقت واحد، وكان طريقك أنت معروف إلى حد ما، فـ"الميكروباص" الذي جاء بك سيحملك ويذهب بك في الاتجاه العكسي. تركتهم أو تركوك وأصبح عليك أن تجتهد وحدك في التذكر. وقفت على المحطة وبجوارك سيدات ورجال وعيال، لم يلتفت إليك أحد برغم غرابة هيئتك، اقتربت من رجل يقف وهو يحاول إشعال عود ثقاب:

- هل يتأخر "الميكروباص" في مثل هذا التوقيت؟

سألته، فأجاب الرجل والسيجارة تهتز بين شفتيه:

- زمانه في الطريق.

لم تكن إجابة على أية حال، ولكنك اختبرت رد فعله عند رؤيتك، لم يكن هناك ما يثيره أو يستدعي عجبًا في نظراته أو نبرة صوته، اقتربتْ منك سيّدة بطنها أمامها شبران، حك بالونها المنتفخ في مؤخرتك، فنظرت إليها وأنت تتابع عبورها، رمتْ عليك نظرة سريعة وقالت:

- لا تؤاخذني يا أخي.

ثم بعد ذلك انصرفتْ كأي امرأة محترمة تعتذر عن موقف عادي. وكنت تود الخروج من المواقف المُحرجة وأنت مجبور الخاطر. بعد الأرق والإجهاد المتواصل تمنيتَ الحصول على أية مسرّات، فقد كان تركيزك مُشتتا وتفكيرك متوقفًا عن النشاط، تعبت من المراوغات وفَقَدَتْ شِعاب أعصابك القدرة على الشم.

جاء "الميكروباص" وأمامك بالضبط توقف، فركبت، وتحرك، وفي أقل من طرقعة إصبع وصلت، فنزلت، وتذكرت بأنك لم تدفع الأجرة، ولكن شَغَلَك عن دفع الأجرة شوشة ذرة حمراء تبص من شباك بيتكم القديم، طلت الملامح التي تحفظ تفاصيلها جيدًا، جدتك، أغلقتْ ضلفتي الشباك بشراسة، اختفت الحصيرة الشيش وظهر مكانها الرأس بكامل هيئته وذكرياته، بدأت سنتها الوحيدة تدق لثتها بقوة، وبدأ فمها استلام وظيفته بعد عطب طويل:

- أنت جئت يا زفت الطين؟

– ٤ –

وهكذا أصبحتُ كبطة سوداء تعوم في بِركة كل ما فيها بط أبيض، ولكنهم يرون العكس ويريدون إقناعي بما لديهم من معلومات، الناس الذين تجمهروا من حولي كان لوجوههم لون باذنجاني مصقول، ولكنه برغم ذلك غير مُخيف، أعينهم نجلاء وكأنها مختصة بكشف أسرار مهمة، توحي هيآتهم بأنهم قوم يصلحون لنثر الإجابات أكثر من طرح الأسئلة.

كنت أشم رائحة اللحم البشري بمجرد رؤيتهم، رائحة بصل يُقلى على نار هادئة، تتخللها رائحة دخان وزيت طعام محروق، وفرو ماعز في أول درجات الشياط، يختلط كل ذلك بغبار قرفة خفيف، تنتصب أعصاب الشم في مخي فأتبيّن، إيحاءات بصرية تنقل الرائحة إلى لون، فأتخيل ما تبقى حتى يمكنني ترميم الصورة وتأكيد انطباعها المرئي، فقدتْ الكلمات جرْسها وأصبحت الصورة هي المسيطرة على إحساسي، تُهتُ بين شِعاب الشم وكرنفالات الألوان، بين الرؤوس الصلعاء والمحتفظة بشعرها، وبين الأجساد البدينة والأخرى الفاقدة لشحمها، وبين البشرات السمراء والأخرى الوردية، لم أعد أدري ماذا تعني كلمة مثل ملوخية، أو ذراع، أو دفاع. مدينة. مدفع. قُبلة. قنبلة.. سيطر عليّ مشهدي الضيق الذي أتلعثم في اجتيازه، تراكم التفاصيل يُشكّل الشخصيات تدريجيًّا، شخصيات يُخيل إليّ بأني كنت أعرفها في زمن ما ولّى

وانقـرض، أو لم يـأتِ دورهـا في زمـن لم تتحـدد وظائفـه بعـد، أقـف وأنـا أرتـدي كل ملابـسي، حتـى الجاكيـت "الفايـبر" الثقيـل في عـز الحـر، وأنتعـلُ حـذاء أسـود برباط، وسـاعة قديمـة ورثتهـا عـن أحـد أجـدادي، يُقـال بأنـه كان تاجـرًا كبـيرًا ولـه صيـت.

لمـا هجمـوا عـليّ وأصبحـت بينهـم كحبـة شـاي أوقعهـا القـدر في برطـمان سـكر، استسـلمت لمـا سـيأتي برضـا، اقتربـوا وهـم يسـألون بشـغف بعـض الأسـئلة الطفوليـة:

- بكم هذه الساعة الجميلة التي تلبسها في يدك؟

-

- لماذا لا ترتدي غيرها؟

-

- من أين اشتريتها؟

-

رفعـتُ يـدي بمقـدار بوصـة، وأخـذتُ أتأمـل معصمـي وأهـز فيـه الأُسـتيك المصنـوع عـلى هيئـة جلـد ثعبـان، كان معـدن السـاعة يحـك في إسـورة الجاكـت "الفايـبر"، وبرغـم ذلـك لم يـروا إلا السـاعة فقـط، اختلفـت الرؤيـة بينمـا المشـهد يـدور في مـكان واحـد وزمـان واحـد، كانـوا يثرثـرون بشـذرات حـوار لا يأتينـي مكتمـلًا، مفـاده الـذي أمكننـي اسـتيعابه، أني في أعينهـم أقـف كـما خلقنـي الله، خاليـا مـن الألـوان، والسـتر، كحبـة بُنـدق نطـت مـن قشرتهـا، وتجاوزتهـا، مـن كثـرة الحديـث عـن عُريـي بـدأتُ أشـعرُ بالفعـل أني عريـان، تنقبـض تجاويفـي بـين الفخذيـن وعنـد الردفـين خوفًـا مـن كشـف عـين مُتطفلـة لأسرار خِلقتـي، وكان

وريد رقيق من الخجل يتحكم في كل ما أشعر به من أحاسيس سلبية، فلماذا الخوف من الفضح وكلهم أمامي مفضوحون؟ كان تعريفي الأوّلي لهم أنهم قوم يشتركون معي في كل شيء عدا الرؤية، فجميعنا متساوون، لنا ذراعان وقدمان وأجهزة هضمية ودورية ورئتان للتنفس، ولنا كذلك رأس تطل منه عينان، ولسان وشفتان، تختلف فقط الكماليات، رأس بشعر أو بدون، لحية مُرسلة أو مقصوصة، ملامح مُكشرة أو باسمة. إذ إن كل ما يُفرّقنا هو ما لنا دائمًا فيه يد، عند الحديث عن المستلزمات يبدأ الاختلاف، فهذا اسم عادي وسلبي لا يستدعي للذهن أي تصاوير أو خيال، أما ذاك فاسمه مُركّب يسعد صاحبه بالكنية واللقب. كل هؤلاء المتحلقين من حولي يقومون بتلقيح أشجار الكلام، لا لتناسب المواقف بقدر ما تناسب حاجة تحتشد داخل نفوسهم.

كنت أشعر بشيء ما يربطني بملابسي، هُيئ لي بأني أنا صانعها، أنا من اشتريتُ القماش وقَصَصته، حَردتُ دوران المقعدة وحِجْر البتلتّة، وأنا أيضًا من علّق اللافتة المكتوب عليها أزياء الشرق، وأنا كذلك من أكدَ على الخطاط بأن يُضيف عنوانًا فرعيًا بين قوسين (للأناقة أسلوب) ولكن في أي زمن سُطِرتْ هذه الأحداث؟ لا يمكنني الآن التذكر بشكل كامل، كل ما أعيه أن هذه الحياة تمر أمامي كخربشات خفيفة خُطتْ في دماغي، أو كنخالة ترسّبتْ في قعر ذاكرتي، ولكنها في الوقت ذاته ترمح إلى المجهول، أراها تبتعد صاعدة أو هابطة بسرعة، كأني عشتها خلف ستار من مشمع سميك ومغبش.

خفتتْ علاقتي بالناس والأشياء من حولي، لم أعد أسمع حشرجة التحية المعتادة، ولا وقع خطواتهم الثقيلة، اختفى وعيي الكامل وحل محله إحساس بتجمد المشهد، رأيت في الجو دخانًا، كما لو كنتُ في حرب قنابل غاز بالكاد وضعت أوزارها، والأشياء تتكرر كشريط فيلم سينمائي رأيته عشرات المرات، انفك الوثاق ولم تعد لي سيطرة على ما يحدث، لم تعد لي أي حيازة في المكان، ولو حتى شبر واحد، أشعر بأن مادتي أصبحت لا بشرية بالمرة، كأني صرت شيئًا أموج مع الأشياء، أو صورة فوتوغرافية سائلة تتأثر بالزمن، وتتحول للوحة من زيت أو تمثال من خشب، فقدتُ مع الوقت الإحساس بالساعة وتعاقب الليل والنهار.

كل ذلك لم يكن يقلقني، وجودي بين الكتل البشرية العارية، تدثري بملابس ثقيلة لا يرونها جميعًا، كانوا يرون فقط ساعتي أم عقارب، مقبرة الآمال العظيمة والخيبات المتوالية. كان سبب الطمأنينة هو أني لا زلت أشعر بمن حولي، أحاول توصيف الأحداث بما أمتلك من بقايا وعي، غِبتُ، ولم يعد بإمكاني الحضور مرة أخرى.

كلما حاولتُ أن أصف شيئًا يصعب وصفه، أشعر بتمزق في صدري، أجتهد في دفن الكلمات قدر استطاعتي، ولكنها تقب وتلبس أرواحًا من الأفعال رغمًا عني، ولا يصبح بإمكاني التحكم في ما ستفعله بي، أرضخ في النهاية للتحديق في حروفها مضطرًا، لكنها على أية حال، أي الكلمات، تفشّ الغِل وتملأ النفس بالأمل الوهمي عن الغد والمستقبل وترسم لوحات من تصاوير على الماء، يجري النهر، ويظل التحديق

في الكلمات كما هو، وكأنها ذخيرة حقيقية.

أحسست بأن تركيزي ينساب من بين أصابعي، كنتُ أقرب لمريض في غرفة العمليات قبل ثوان من سريان البنج في عروقه، والطبيب يسأله. اسمك. سنك. عنوانك؟ كيف تذهب لبيتك؟ أركب ميكروباص. ميكروباص؟ نعم. ميكروباص هه؟ نعم. متأكد؟ نعم.. ميكروباص؟ نـ.. ميكروباص؟ عدم. ميكروباص.. ميكرو. ميـ.

إحساس تدريجي بالانسحاب من الناس والأحداث، هكذا أشعر، فبعد أن حاولتُ إقناعهم خلدت إلى الراحة واشتهيتها، فمن يرد إصلاح هولاء الناس يتركهم ينشدون أغاني الرعاة والصيادين دون تدخل، لا يُفسد عليهم متعتهم، كانت روائحهم تحتشد في أنفي كثيفة مكدسة، تنفخني، أحس بها وبهم كأني صرت كلهم، جميعهم في شخص واحد الذي هو أنا، فلا داعي بعد ذلك لنقاشهم، سأتركهم، هم الذين يشعرون بأني قد فقدتُ شيئًا ما، ولكن لنقل الحقيقة، حتى هذه اللحظة وأنا لم أشعر بالفقدان الكامل، فقط أشعر بأني في مشهد لم يصل معناه بشكل جيد، كترجمة الأفلام التجارية.

* * *

ما أن تخطيت العتبة حتى هلّ عليك صوت خشن لا يمكن أن يكون صوت جدتك:

-إحم. إحم.

في البداية، اعتقدتَ بأنه صاحب البيت جاء لأخذ

الأجرة، تبدد توقعك عندما نقر على كتفك من الخلف صاحب البيت، ثم بكفه ربت، وقال:

-حمد الله على السلامة يا أستاذ عمر. جدتك وزوجها في انتظارك.

توقعتَ أن يكون الأمر قد اختلط على الرجل العجوز، فلا بد أنه يُكلم شخصا آخر، جدتك وتعرفها جيدًا، أما الكلمة الأخيرة فلم تكن مضبوطة المقصد، ربما خانته مخارج الألفاظ، زوجها؟! زوج من. جدتك؟!

برغم ابتعادك عن البيت لأسبوعين فقط، فكأنك غبت دهرا، كان البيت مدهونا بالأزرق ومرسوما على واجهته طائرة وسفينة وجملا، وعبارات التهاني بالحج المبرور تملأ فراغات الجدران الخارجية، أما المدخل فالبلاط فيه لم يزل مشبعا برائحة الأسمنت، وورود صناعية تقودك إلى الغرفة التي كنت تعيش فيها مع أمك وجدتك، ولكنها زاهية بشكل لافت، طرقتَ الباب بالراحة أولا، لم يفتح أحد، كررت الطرق بهمة أعلى ففتحت لك جدتك، في البداية، لم تكن جدتك بشكل مؤكد، كان ظهرها المُحْدَوْدَب قد أصبح شبه مستقيم ولون بشرتها تفتح قليلا، وركّبت عدة أسنان نفخت شدقيها ووّردت وجنتيها، لا، ليست عدة، هي أسنان حقيقية نظيفة ومتساوية. كان وزنها قد زاد قليلا عما تركتها، رحبتْ بك بمخارج ألفاظ سليمة النطق هادئة النبرة، ثم جلستْ وقرفصتْ فوق سريرها الحديدي الذي كان مُعدا لاحتضارها منذ أيام. بعد هدوئك من فورة المشوار رأيت المكان بصورة أوضح، فالحصير تبدل سجادا، ومكان سريرها وُضعتْ

ثلاجة كبيرة لها باب بيضاوي، وأمام الشباك تسريحة منظمة ومرصوص فوقها علبة ماكياج كاملة، وفي أدراج الكومودينو الذي كان مخصصا للعلاج وبرطمان العسل الأسود، رأيت أشياء مرصوصة لم ترها من قبل في بيتكم، مشدات صدر ملونة وزجاجات برفان بأغطية مربعة، وقوارير كُحل على شكل تماثيل صغيرة.

أغلقتْ جدتك الدُرج بعد حملقتك فيه طويلا، وأثناء غلقه اهتزت يدها بغوايش ذهبية تغطي من ذراعها شِبْرا، فخبأتْها بطرف جلبابها النبيتي اللميع، كانت التغيرات صادمة ولا يمكنك تخيل أن جدتك تعيش في هذا البذخ وهي في هذه السن، بمناسبة السن، هُيئ لك بأن الزمان عاد إلى الوراء وجرف جدتك لسنتين أو ثلاث، وربما خمس أو سبع، تأملتها مرة أخرى، للحق، حوالي خمسة عشر، إذ لم ترها بهذا التركيز والوعي منذ كنتَ مراهقا وتعقد المقارنات الدائمة بينها وبين أمك، تشتت تركيزك وارتبك تقديمك وتأخيرك، تشوشت لوهلة، ثم عدت تتابع ما تغير في حياة جدتك، تبدلت الهرجلة في ملبسها إلى شكل متقن من ألوان متناغمة المقاسات والهندام، كانت ذاكرتك تحتفظ بآخر مشاهدها وهي في ثياب المجانين المبتذلة، تضحك وتلمع عينها لمعة تائهة، تشعر بأنها ستبتلع بعدها الكون، وكانت أكثر حركاتها شيوعا هي الرقص المتشنج، و"العجوز لما يتدلع يكون مثل الباب المخلع"، هكذا كانت أمك تقول.

جلستْ جدتك مشدودة الصدر باسمة الهيئة دقيقة اللفتة. عنقها كأنه نصب تذكاري مثقل بالزخارف، تلمع عقودها

مدلاة في دوائر ذهبية صغيرة. من شرودك المتواصل سحبك صوتها:

- مساء الفُل.

وتشعر بأنك في ورطة أكثر من إحساسك بوجوب الرد، كان جَريان كلمة فُل على لسان جدتك يستدعي الغرابة، فهي لم تعتد قول مثل هذه المفردات التي يتداولها أصحاب المهن ورواد المقاهي، ولكن من يعلم. ربما ستستوعب عندما تفهم، حاولتَ ترتيب ذاكرتك لتمكنها من دس التغيرات الجديدة في مساحاتها الفارغة، حاولت تذكر وقائع محددة تعود عن طريقها لرشادك وتستطيع هضم ما يحدث من حولك. ساورتك بعض الشكوك في اتصال جدتك بعوالم أخرى بعيدة، فقد كان زوجها الذي هو جدك لأمك تاجرا يبيع الدخان والمعسل، ويُقال أن اسمه كان فايز، وسُميتْ ماركة المعسل على اسمه، معسل فايز، اكتسب بمرور الزمان شهرة إقليمية، وكان جدك هذا طيبا حد السذاجة، ولا تعرف كيف تجتمع فيه صفتان متناقضتان، النجاح الكبير في التجارة، والطيبة التي لا تتوفر إلا في البهاليل، على أية حال، كان هذا رأي الحكايات المتناثرة هنا وهناك وتنمو مع القيل والقال والمتشابهات بينهما. لم يكن يغريك في حكايته مسألة التجارة والمعسل بقدر ما كانت تسحرك سيرته في حياته الأخرى، حياة أقرب لحلم، ولكنه حلم كالحقيقة.

كان جدك الذي لم تره يمتلك قدرة غريبة، فيربط بين ما يراه في الأحلام وبين المادة التي تتشكل منها الحياة في الصحو، أو بمعنى آخر كان يُحوِّل ما يراه في أحلامه إلى مادة

ملموسة، فلو أنه حلم بأصناف طعام جديدة يصحو من نومه ليصنع مثلها، ولا تقر له عين إلا بتجريب ذلك، وكان يخالفه النجاح بعد عدة محاولات. ولكن المرة التي وقف فيها شعر رأسك، كانت عندما ذُكر جدك في الحكايات، جاءك يسعى، عَبَرَ أربعين عاما من الغياب، اقترب على بساط من الخيال، وكان يحلم، رأى في منامه ذبابة تتعلق بخيط عنكبوت تمكن منها، وهي تلفّ ببؤس في محيط واسع من الأسفل ولها مركز واحد في السقف، دارت كثور يلف في ساقية، لا يرى إلا حلقة الدوران وحافة البئر، طنت الحشرة الصغيرة طوال الحلم، صحا جدك من منامه وروحه مُعلقة في الهواء كالذبابة التي شاركته الحلم، وما أن استقر ورأى ملاءة السرير المزهرة حتى توقف عن الدوران في الأفلاك، ولكنه فور فوقانه أخرج ورقة علبة معسل من سيالة جلبابه، كانت مخطوطة ببعض الحسابات، أخرج قلما، ورسم المشهد كما رآه قبل أن يتوه في غابات النسيان. بعد ذلك بأيام قليلة صنع أرجوحة في بيته الواسع القديم، أريكتان صغيرتان، الجلسة فوقهما مُريحة، كان لهما مركز واحد في السقف البعيد وتدوران على رولمان بلي في قطر قُبّة بعيدة، يجلس جدك على كرسي وجدتك بجواره، وكان يطيب له أن يضع يده فوق كتفها قبل الدوران، وعندما تلف الأرجوحة يأخذ مكانه البعيد عنها، وتدور الحلقة الكبيرة فينفض من دماغه كل الهموم وهو يتابع أحبالها المشدودة، وما أن يتحرك في السماء القرص المستدير حتى تلف ذاتيا بدون تدخل من أي طاقة حرق أو توصيل كهرباء. تتطوح أذرعها الكثيرة في الهواء وتصنع

غلالة من أسلاك تشبه الأصابع، وعند دورانها بقوة تتداخل الخيوط بالأذرع وتصنع حالة من الحلم الناعم المتواصل.

باغتك صوت جدتك بسؤال قطع كل موصول في دماغك:

- لماذا جئت إلى هنا الآن. وأين أبوك الذي ذهبت لزيارته قبل أسبوعين؟

– ٥ –

أصبح بإمكاني الآن أن أسمّي هذا العام بعام العُري، على غِرار عام الفيل وعام الطوفان وعام الحزن.

ظلال البشر العارية تطبق فوق صدري، أتقوّس من فرط ثقلها، لحوم وردية تجتاح كُل ما يقابلها، أيام ما كانت الأجساد مستورة كان يمكنني رسم التنبؤات بسهولة، أما في عصر السفور فلا يمكنني أي تخيل، لم يعد للناس من حولي حديث سوى عن عُريي، ولم تعد في نفسي أسئلة إلا عن عُريهم، وكأن مسألة القلع واللبس أصبحتْ هي جوهر الوجود وسبب النوائب، كيف نمت بذور هذا الجنون؟ وفي أي دماغ جهنمي تفرعتْ وتشعبتْ؟ على أية حال، كان اسم سنة العُري اسمًا مناسبًا وخفيفًا، متى ولدتَ؟ في غُرّة سنة العُري، متى مات جدك؟ في خريف سنة العُري، إنها إذن سنة العُري.

– يمكن للعالم أن يخلو من الزرع. ولكنه لا يمكن أن يخلو من اللصوص.

قال رجل لا أعرفه قاطعًا استرسال أفكاري، ثم غمغم بلغة لم أفهم منها حرفًا وانصرف، أي لصوص كان يقصد؟ من يسرق يسرق ما في الملابس، وبما أنهم فقدوا ملابسهم في ظرف تاريخي مبهم، فمن أين لهم ممارسة لصوصيتهم؟ هل سيسرقون الأجساد نفسها بعد ذلك؟

بـدأتُ في اسـتعادة كلـمات الرجـل بشـكل جـاد عندمـا نشـبتْ مُشـاجرة بـين اثنـين مـن العرايـا نشـع عـلى أثرهـا الـدم بسرعـة مـن ثقـوب الجسـدين، فـلا ملابـس تمتـص السـوائل كـما كان في السـابق، أغـرىَ اللـون الأحمـر باقـي الجمـوع للفرجـة، تحلّقـوا حـول المتصارعـين وتركوهمـا يُصفيـان النـزاع عـلى مهـل، كان سـياج اللحـم البـشري مغريًـا للمتقاتلـين بـأن يسـتمرا في شـجارهما، فقـد أصبـح لهـما جمهـور ينتظـر نتيجـة الـصراع بشـغف، هلـل المريـدون وصفقـوا بصـوت مرتفـع، دقـوا الكفـوف بقـوة عـلى نغمـة واحـدة وحجلـوا بأقدامهـم في نفـس المـكان، كلـما ارتفـع صوتهـم كان ذلـك يُحفّـز عـلى ازديـاد وتـيرة الـصِراع، لم تكـن معهـما أيـة أسـلحة، ولكنهـما اسـتخدما الأظافـر لحفـر الأخاديـد في اللحـم العـاري، سرعـان مـا تبعهـا جريـان السـائل الأحمـر وهـو ينـزّ ببـطء ثـم يسـيل خـارج الأخـدود، أصبـح لـكل منهـما نصـف جسـد باللـون الـوردي والنصـف الآخـر باللـون الأحمـر، ازداد التصفيـق وضرب الكفـوف والحجلـة، أصبـح هنـاك سـياج غـير مرئـي يفصـل بـين الجمهـور والنجمـين، سـياج يعـترف ضمنيًّـا بأنهـما مـن الهالكـين، أو عـلى الأقـل، سـيُجهز أحدهمـا ويُزهـق روح الآخـر لا محالـة، ومـا سـيمر مـن وقـت ليـس فقـط إلا تحصيـل حاصـل، المشـجعون يُهللـون ليقـضي واحـد عـلى الآخـر. أجهـز مـن كانـت لـه الغلبـة الجسـدية عـلى صاحبـه الضعيـف نسـبيًّا، فوقـع تحـت قدميـه كمحـارب يهرسـه جـواد عفـي، لم يعـط الرجـل المتفـوّق جسـديًّا فرصـة للآخـر كـي يعـرض وثيقـة سـلام، ولم يعطهـما الجمهـور المتعجـل للنتيجـة فرصـة لضبـط النفـس، والمعركة تسـير

في اتجاه وضع الأوزار، الرجل المتفوق يزداد تفوقًا، والرجل الضعيف أصبح كخِرقة حمراء مبلولة، كان منظرهما يشبه حلقات النكاح البدائية، عندما تقف أنثى مستضعفة وخلفها فحل يحفزه الاستقواء وتأكله الشهوة، ولا بد لكي يفوز بها أن يثبت جدارته، فيهز عُرفه المنتصب في الهواء ويُطوحه ليزيد من طوله حتى تصبح اللحظة سانحة للإيلاج، ولا يفعلها إلا بعد تهليل إعصاري وتصفيق كموج بحر غاضب، وبعد استكانة الأنثى المستضعفة واستعدادها تمامًا لاستقبال السهم الطائش. وبعد أن يصبح كل شيء على ما يُرام ينفضّ المولد ويعرف كل واحد من الجمهور طريقه.

لما عدتُ للمشهد كان قد تطور بشكل مثير، الرجل الضعيف نائم على الأرض، لا دليل على الحياة فيه إلا نفَسه، شهيق ضعيف وزفير مكتوم يُحرك صدره المسجى، والرجل المتفوق جسديًّا يضع قدمًا واحدة فوق صدر النائم المهزوم، لم ينقطع التصفيق والتشجيع برغم تحديد النتيجة، لم يُرضِ شغف الجمهور هذا الحد منقوص الإثارة. فُتح السياج البشري وحدثت فيه ثغرة على مدد الشوف، ثم اقترب رجل هُيّئ لي بأني رأيته من قبل، أعرفه، مألوفة ملامحه، محفورة صورته، إنه هو، نعم هو بذات نفسه، سيف باشا.

اقترب بمهابته المحفورة في ذاكرتي، كان على مشارف حلقة الصراع، ولجها وأصبح فيها ثالثًا بين المتحاربين، أخرج من طيات ملابسه الكثيرة مقص الأشجار، أمسكه بيديه وطقطق به أكثر من مرة، حفّز ذلك الجماهير التي كانت في حاجة لمن يلهب حماستها بأي ثمن، هاجوا وعلت أصواتهم بين الصفير

والصياح والعواء. أعطى الباشا مقصّه للمنتصر وخرج، انضم للجمهور بنفس الكبرياء والشمم، أمسك الرجل المتفوق جسديّا بالمقص ورفعه في الهواء لأعلى قدر ممكن في حركة تحية للجمهور، ثم أمال الرجل الضعيف على جنبه وصوّب المقص الكبير ناحية عنقه، وبضغطة واحدة عفية رأت الجماهير ما أشبع غرورها وأعاد السكينة إلى نفوسها، تدحرج الرأس لمسافة مترين بعيدًا عن جسد صاحبه، لم يلحق به خرطوم الدم، الرأس الذي كان يكبس الجسد طار فتبددتْ أسباب الضغط. وهنا صمت الجمهور وخيّمت عليهم حالة من السكون والتأمل، أما الصوت الوحيد فكان لسيف باشا، صفق بكفيه الكبيرين، وحفّز صدى صوته الجمهور، وسُمِعَتْ كلماته تشق السكون:

- عفارم. عفارم.

* * *

قدمتْ لك جدتك قرصا من المشّبك ينز منه العسل، تذوقته ثم التهمته، كان طعمه لذيذا، كأنه معمول بالسمن البلدي، من فرط حلاوته لم تعطها منه قطعة، أشارت بيدها والغوايش "تخروش" فيها على رصّة طويلة، حوالي عشرة أقراص من نفس النوع، كانت الرصّة لها خطوط طيفية الألوان مبهجة، ومغلفة بـ"سليوفان" مفضض فيه فراغات شفافة، ليس من المستغرب وجود نقِاش بينك وبين جدتك بخصوص التهام أقراص المشبك، ولكن المستغرب حقا هو وجود المشّبك هنا بهذه الكمية والحلاوة.

كنت تشعر بأنك في عرض سينمائي وليس بإرادتك الخروج منه، على الأقل في القريب العاجل، ومع ذلك فقد كنت مستمتعا إلى حد كبير، نسيت عُريك واختفاء ملابسك للأبد، وتحولت رسميا لمكانتك السابقة في العائلة، حفيد يجلس أمام جدته، مع استمرارك في التأمل صرت تدقق في التفاصيل من حولك، الغرفة تشعر في تأسيسها بالذوق السليم، كرسيان بمقعد هزاز، والأرض يغطيها سجاد أحمر، وسرير جدتك الحديد مرتب بذوق، من فوقه ناموسية زرقاء جميلة غير مخدوشة النسيج. هُيئ لك بأن الغرفة زادت مساحتها عن ذي قبل، يذكرك إحساسك هذا بمعلومة تاريخية عن عائلة جدتك تعود إلى حوالي نصف قرن، كان بيتها كبيرًا منذ سنوات بعيدة، أيام ما كان جدك فايز يتاجر في الدخان وتُملأ حاويات السفن من مصنع المعسل الذي يملكه، ولكن بعد موته بمرض مفاجئ ظهر منافسون كثر في صناعة الدخان.

تفتتت تجارته، وتحولت جدتك لذلك النوع الذي يُسمونه ميسورا، اضطرت بعد ذلك لبيع أكثر من نصف بيتها، اكتفت بغرفتين وصالة بالمنافع، هم كل ما نالت جدتك مما ترك جدك فايز، وكان من أسباب انطفاء البريق في عينيها اضطرارها لتفكيك الأرجوحة التي صنعها لها جدك على غِرار حِلمه الذي رأى فيه ذبابة مُعلقة في خيوط عنكبوت. فلم تعد جدتك ترى الأذرع الطويلة المتطوحة في الهواء، ولم تعد أيضًا تُمتع نظرها باللف في حلزونات الهواء الطلق، فتغيرتْ نفِسها وضاق خلقها.

ولكنك الآن تراها في ثوبها القديم، أصبحتْ كما كانت أمك تصفها في الحكايات.

انتظرتَ أن تسألك عن عدم ارتدائك لأي ملابس، أن تتعجب من عُريك، فلم تسأل، ولم تتعجب. هل كل شيء بالتعود يكون طبيعيا؟ في تلك الأثناء قامتْ جدتك ولاحظتَ بعد انتصاب عودها بأن جلبابها النبيتي ما هو إلا قميص نوم يُظهر من لحمها أكثر مما يُخفي، مقروط حتى ركبتيها ومن فوق يبيّن كتفيها، وتقويرة كبيرة من عنقها. عادتْ جدتك بعد قليل وهي تحمل كوبا كبيرا من الشاي الساخن، جدتك، جدتك أنت تصنع لك، لك أنت، كوبا ساخنا من الشاي؟! وضعته أمامك برقة، حتى أنها لم تزعجك عند وضعه كما كانت تلقي بالأشياء من قبل، قبل؟ أي قبل؟ جدتك تصغر وتجاعيدها تنفرد، حتى عنقها الذي كان به جزء حاد مكان تفاحة آدم تَدَوَّرَ، كان ينتصب من تحت ذقنها وحتى منتصف صدرها سيف رقيق من اللحم كورقة جُلاّش ليس لها أبعاد، وفكها يحرك الورقة ويتحكم في هزاتها المستمرة، كما لو كانت تزدرد شيئا وهميا، أما الآن، ففكها متماسك وبصّتها مع بشائر الابتسامة تذكرك بوقفة الفلاحة المونالیزا، لقد اشتريت منذ مدة بعيدة بروازا لفلاحة تحمل فوق رأسها بلاصا، ربما كانت جدتك أكبر منها سنا ولكنها تشبهها، بالأدق كأنها أختها الكبيرة.

اقتحم جلستكما صوت مهيب وله من الفخامة ما يُجبر الآذان على الإنصات الجيد:

-إحم.. إحم.

لم تلتفتْ خلفك، ولكنك كنتَ ترى هيئة الآتي من ورائك بخطوات بطيئة من خلال نظرات جدتك المترقّبة، زاد تبسمها وهي تقوم من مكانها وتمد له ذراعيها على شكل حُضن، وكنت بينهما تصارع في مكانك محاولاً الفهم، نظرتْ جدتك في عينك نظرة فيها قدر كبير من الحنية لم تتعوده منها، ثم قالت بصوت متماسك:

- طول عمره مؤدب. يقول إحم كثيرا قبل الدخول لأي مجلس. اعذره يا ولدي. فقد جاء من مسافات بعيدة لا يمكن قياسها.

على نفس وضعك المتوتر، وبنفس وجهتك، كانت عينك في عين جدتك، لا تقوى على الالتفات للخلف، فسألتها:

- من هو؟

فقالت وهي تترك مجالك وتذهب لمن مدت له ذراعيها منذ برهة:

- جدك فايز.

-٦-

أمسى العالم بالنسبة لي مسعورًا، فبعد أن رأيتُ رأس الرجل يترك مجاله كرأس ديك ويتدحرج بعيدًا، لم يعد شيء في نظري مُستبعدًا، أصبحتْ أمنيتي الوحيدة أن أتدثر بمحار ويلقوا بي في قاع محيط، لم أعد أتمنى أن يكون صوتي هو هدير الكون وزمجرته، كنت كمن على يقين تام بفناء العالم وينتظر فقط يوم التتويج المشئوم.

كان سبب رغبتي العارمة في الانزواء هو إحساس بألا شيء يستر سوآتي، ولا حتى ورقة جوافة، وكان من يُشبّهوني بذلك التشبيه يُسقطون ما في أنفسهم على مرآتي، فما يشعرون به لا يرونه، وما يخطر أمام أعينهم لا يصدقونه، ليس ذلك فحسب، ولكني أنا، أنا صاحب أزياء الشرق، وأنا صانع ملابسي هذه، نعم، بنطلوني الجبردين الأسود، بكسرتين وجيبين خلفيين، صنعته، نعم، أنا الذي صنعته وليس أي شخص آخر، وقميصي الكشمير اللبني ياقته مُنشّاة بفضل حشو الفنهاوزن الثقيل، أنا عُمر الترزي، الأسطى عمر كما يناديني الزبائن، أخذت أصيح في هؤلاء السائرين عرايا:

- أنا صاحب أزياء الشرق، أنا مؤسس أزياء الشرق.

لم يسمعني أحد، لا مُجيب على صياحي، سأفصّل لهم ملابس تسترهم، ربما استحسنوها وجاءوا بزبائن جدد، كيف أكون صانع ملابس والناس تتفق على أني عريان؟

ربما لأني صانع للملابس وصفوني بالعري. كنت ترزيًا منذ مدة لا تسعفني بتحديدها ساعتي أم عقارب، أخترع قصّات جديدة للزبائن، وكل جديد كان يأتي عن طريقين، إما ملل من القديم، وإما خطأ في التقليد، وكانت الثانية من نصيبي، فأي تحريف يعتبر إبداعًا، كنت أحاول عمل كسرتين في بنطلون أحد الزبائن، فجاءتا معكوستين، وعندما حان وقت الاستلام أسعفني الخيال باختراع مسمى لهذه الغلطة الشنيعة، كُلُونَة، قلت له:

- لقد عملتُ لك كلونة.

فاستحسنها الزبون، وجاء بأقاربه وأصدقائه لأقصّ لهم بناطيل بكلونات، كانت هذه الغلطة سببًا في شهرة المحل، وأصبح اسم أزياء الشرق كالطبل، فرفعتُ سعر تفصيل البنطلون للضعف.

لماذا تركوني أعبر خارج البوابة؟ كنت أسأل نفس السؤال بصيغ مختلفة: لماذا عبرتُ البوابة. ولماذا توجد أصلًا بوابة تفصل بين الناس وتُصنفهم ألوانًا وأشكالًا ونوايا؟ كانوا يسمعون أنفسهم فقط، أما صوتي فلم يكن يتجاوز حلقي ولم يعبر محيط جسدي، هل سأرد عليهم بكلمة. وهل الكلمة ستنقذني مما أنا فيه الآن، كلمة، لا مانع إذن، فسيدنا نوح أنقذ الحياة على كوكب الأرض عندما نَطَقَ الاسم المئة من أسماء الله الحسنى، فعبرتْ سفينته الطوفان بعد عبور الكلمة لحنجرته.

مر عليّ رجل عجوز، وبدون كلام أمسك بخناقي وقال:

- يا مُفتري. يا عدو ربنا. أتقف عريانا، يا أخي، استح،

يـا مفـتري.

عندمـا قبـض بأصابعـه عـلى ياقـة قميـصي حمـدت الله في سرّي، ثـم صحـت فيـه وفي مـن حولـه:

- ملابـسي. في يـدك ملابـسي. أنـا لسـتُ عُريانـا. ياقتـي بـين أصابعـك.

تركنـي الرجـل وهـو يسـاوي كرمشـات قميـصي ويعيـد وضع ياقتـي لِمـا كانـت عليـه. تُهـتُ وأصبحـتُ لا أدري عـلى أي أرض أقـف، نـبرتي الداخليـة حائـرة بـين الرصانـة والتوسـل، إلى أيـن أذهـب، أنـا، عمـر، صانـع الملابـس وصاحـب أزيـاء الـشرق، في الزمـن المنـصرم، وقبـل أن يهـلّ عـام العُـري كان مجـرد رؤيـة مثـل هـؤلاء العرايـا تعتـبر لقيـة لأي تـرزي، فرصـة لانتعـاش بنـك القـص ودوران مكـن التقفيـل السـنجر، عمـل العـراوي وتركيـب الزرايـر والكُبَـشْ، ثنـي الرِجـل بالسراجـة أو البيجـة الخارجيـة، تركيـب الكمـر ولوكسـات الحـزام، وعمـل جيـب سـاعة لكبـار السـن والموظفـين، لـو أن كُلا منهـم فصّـل طقـمًا واحـدًا فقـط كنـت سـأجدد المحـل مـن الألـف إلى اليـاء، أغـيّر الإضـاءة وأركّـب بابًـا مـن زجـاج السـيكوريت، لأكتـب عليـه بالقطـن الأبيـض رقـم السَـنة الجديـدة وبجوارهـا كل عـام وعملائنـا الكـرام بخـير، في السـنة العاديـة وليسـت سـنة العُـري.

عندمـا تذكـرت كل هـذه التفاصيـل وقفـت أمـام الجمـوع السـائرة أمامـي، وقلـت بصـوت نسـى فجـأة بأنـه محبـوس:

- أنـا عمـر الـترزي. صاحـب أزيـاء الـشرق. أنـا عمـر سـعيد إبراهيـم.

* * *

الآن أصبحتَ أمام جدك وجها لوجه، جدك فايز، كان يقف أسفل صورته، الفرق بينهما أن الأصل ملون، ويتحرك، قدمته جدتك على نحو فيه من التفخيم ما يؤذي مشاعرك، قامت من مكانها ووقفتْ بينكما، أخذتْ تُشير بيدها إليه وهي تحدثك. كانت جدتك تبدو في ثيابها النبيتي كفتيات الليل، تتقصّع أمام جدك دون أي اعتبار لوجودك، يبدو أنهما تفاجآ بوجود حفيد شاب بينهما، انفرطتْ سيرة جدتك كما تحتفظ بها ذاكرتك، وكان يبدو من معاملتها الرقيقة له بأنه جاء من سفر طويل، ربما كان يُصرّف بضاعة في كازاخستان أو في اسطنبول، فالمعسل والدخان المحلي لا يتم توريدها إلا لدول شرقية. وكان جدك يبحث عن العمالة الرخيصة ليوفر في المصاريف، فكان يأتي ببعض السمكرية وفاتلي الأحبال، ويجعل لهم أعمالا في صناعة الدخان وتجارته، وكذلك استدعى بعض صانعي القلوع الذين كسدت مهنتهم وجعل لهم عملا في تشوين المخازن وتعتيق المراكب بكراتين المعسل، وتغيرت مهن بعض الحمالين وصانعي براميل المخللات ليستقروا في مصنع جدك، وأصبحت مهنتهم الجديدة هي صناعة المعسل. وبعد أن كانت الصادرات في مصانع الدخان المصرية لا تخرج عن دول مثل روسيا وسوريا واليونان، توسّع جدك فايز في توريد الدخان لدول كإنجلترا والنمسا وسردينيا والسويد، وكان لذلك فائدة عظيمة، فقد جعلته يتحول بسرعة من أصحاب الصناعات الصغيرة إلى مصاف الأعيان وأصحاب الطين.

شذرات من بقايا حكايات تعبرك بملمسها الناعم، تجتهد

ذاكرتك في الاحتفاظ بها قدر الإمكان. دائمًا كنتَ ترى عبر الحكايات إسرافا في الأوصاف ومبالغة في الأحداث، خاصة عندما تتعلق المسألة بمدح الصفات الحسنة كالشجاعة أو الجمال، ولكن هذا الإحساس تبدد عندما تأملت جدك فايز، فرأسه يلمع بحُمرة ريفية تربت على العِز، وكرشه لا يوحي بالترهل بقدر ما يوحي بالشبع، عندما كان جدك غائبا كنت تتعامل فقط مع الاسم، وتركّب عليه أي جسم وصفات تشاء، كان اسمه يعني نوعا متقدما من النجاح، فايز، قبل رؤيته كنت تتخيله كُتلة واحدة، ولكن التفاصيل شغلتكَ عندما رأيته استوى كائنا من لحم ودم.

فتح جدك الثلاجة وأخرج منها زجاجة مياه، رفعها على فيه فنزلتْ فارغة، وضعها على الكومودينو وتكرع بصوت لا قرف فيه، ولكنه يوحي بطمأنة الموجودين بأنهم في كنف رجل قوي، ثم لبس شبشبه الجلد أبو حزام وأبزيم، وعند عتبة الباب قتل صرصارا ثم خرج. عاد بعد قليل وهو يحمل حديدا كثيرا، عمدان ومواسير وزوايا مربّعة، كلها مدهونة بلون وردي، كأذرع كائنات خرافية، بدأ في تركيبها بمفصلات ومسامير، ثم شبّك الحديد في بعضه بتمكّن كالحدادين، رفع صُنعه في الهواء فصارت قُبّة، يزيد قطرها قليلًا على سقف غرفة، معشّقة في بعضها وممسوكة بصرّة حديدية كبيرة معلقة في الهواء، من الأسياخ المتدلية سيخان عليهما كرسيان من قطيفة حمراء، مُزينان بشرائط ذهبية فيها تخاريم، دفعها جدك بأقل مجهود، فقد ركّب لها رولمان بلي وضبطه بميزان خيط، وبدأت الأرجوحة في الحركة،

ثم جلسَ جدك على كرسي وجدتك على الكرسي الآخر، وبدأت الطاحونة الحديدية في الدوران، في البداية لَفّتْ الصينية بطيئة لا تبدو أن قوى كبيرة تحركها، ولكن سرعان ما تتابعت اللفّات وتوالت صرخات جدتك، خرجتْ منها أصوات بعضها يسكن في منطقة العيب، وجدك أيضًا، هلل كمراهق يقضي يوما في الملاهي، تفتتتْ صرامته المزعومة لما هاجت الأرجوحة الحديدية وانفلت عِقالها، لفّت بسرعة لدرجة لم ترفيها ملامح الراكبين، ولم تستطع الفصل بين الكرسيين القطيفة ولا عَدّ الأسياخ الحاملة للمقعدين.

نزل جدك من على بساط الريح، وتبعته جدتك برشاقة، ثم أخذتْ ترمق الأذرع الحديدية المترنحة في الهواء وتلف من تلقاء نفسها بقوى ذاتية مجهولة، دسّ جدك فايز كفّه الكبير في سيالة جلبابه وطلب منك أن تقضي له من الخارج شيئا.

في بادئ الأمر التبس عليك طريق الخروج من البيت، البيت الذي قضيتَ فيه كل عمرك تقريبا، لم تعد تعرف كيف السبيل للخروج منه، جدك وجدتك بالداخل، يغنيان بانبساط لا مثيل له، يتمايلان بنشوة، ثم يذكرها بشحن الحاويات بدخان معسل، لم تدم من الحياة أساطيل السفن ولا الثروة، طارت كدخان كراسي المعسل، وتحاول جدتك أن تهون عليه، فتذكره بحلاوتها وحَفيان قدميه خلفها، تُبالغ في التشبيه وتقول بأن شق جوز الهند بياضه كان ينكسف من بياض كعبيها، وشعرها النازل على ظهرها حتى ركبتيها، كانت الرواية تبدو حقيقية، فقد أتقنتْ جدتك دور الفاتنة وأجادت تمثيله، حتى أنها بدت مُغرية لك أنت، وبسبب

حبكة الرواية سقط عنصر الزمن وصِرت مُعلقا بين السماء والأرض.

لماذا أنت بالخارج الآن؟ آه، تتذكر، رفع جدك جلبابه أمامك، دسّ يده في سيالته وأخرج جنيها غريب الشكل والألوان، عجيب الحجم والرسومات، مَدّه تجاهك وقال:

- خذ. اشترِ لك حاجة حلوة.

هل وأنت طويل هكذا يُقال لك مثل هذا الكلام؟ هل لم يزل يراك طفلا؟ باش الجنيه في كفّك، لو لم تكن صغيرا فلماذا تبحث عينك عن أقرب بقّال؟ هل بالفعل راحت نفسك لحاجة حلوة بعد تعودك على طعم المشبّك؟ وهل يشتري الجنيه الواحد حاجة تملأ العين؟ كان جدك يعطيك الجنيه بهيبة من أعطى مئة، أو ألفا.

وتشعر بأنك على وشك النوم، تاه عن عينك طريق الدخول للبيت، كما تاه من قبل طريق الخروج منه، لا شك بأنك تخلصتَ من شحنة إرهاق طويلة، كانت المشاهد تتغير في عينك كل برهة، تهيم في ملكوت وتحلم بأشياء لم تكن في الحسبان، لدقائق معدودة تشعر بإرهاق مَن صحا لتوّه من النوم، تمشي في الشارع وأنت تتمطّع، تلفحك نسمة باردة تحدث في بدنك قشعريرة محدودة، تشم رائحة شمعة تحترق وزيت عفن، وعندما تجاوزتها اختفت، وحلت محلها رائحة قرفة فاقعة، رائحة طيارة لم تثبت في أنفك طويلا، مشيت مفتوح العينين وأنت ماض في طريق البيت، تبدّل الجنيه في يدك ببعض مصاصات وأكياس مقرمشات وقرطاس لب، متى اشتريت هذه الأشياء؟ تقصد باب البيت وبرغم ذلك

تتجاوزه مرتين، تعود إليه ثم لا يمكنك الدخول، وقفت ساهما كما لو كنت تبحث عن عنوان في كوكب غير مأهول، شعرت بأنك في مرحلة هُدنة ما، نفسك مطمئنة وراضية، والأجواء من حولك ساكنة وناعمة، لا ضجيج ولا أصوات مُنفّرة. ولكنك لا حظت شيئا، مُحِيت جميع الرسومات من على الجدران، الجمل والسفينة والقطار، وأيضًا عبارات الحج المبرور والذنب المغفور التي كانت تملأ كل الفراغات في واجهة البيت، عاد الحائط كالحا كما كان، جيرُه مبقور ومحارته متآكلة، تأملت المدخل، كان قد تخلى عن بلاطاته، تبدلتْ رائحة الأسمنت بزناخة، والفواصل الجديدة الخضراء بين حزوز الجدران تقرطمتْ وبانت سوءات الأرض، عتبة منهوشة ودَرَج غير مكتمل، شبابيك واقع طبقة دهانها وورق شيشها ومعلقة بمفصلة واحدة.

توقفت أمام البيت، حاولتَ تذكر أول الخيط، وقبل أن يستقر وعيك على أحداث تجعل المشاهد مترابطة، كان صاحب البيت الذي رأيته منذ قليل وهو داخل المسجد يخرج منه، اقترب منك ونقر ظهرك ثم على كتفك ربتَ، وقال:

- هل كنت مسافرا؟

- لا .

- أين كنت إذن؟

- لماذا تسأل؟

- لأنك لم تحضر جنازة جدتك منذ أسبوعين.

-٧-

لماذا لا أدوّن كل ما مر عليّ من مشاهد؟ فربما هرب الوصف وأصبح من الصعب الإمساك بتفاصيله مرة أخرى، كنتُ أكتب بعض المشاهدات وبعد أن أفرغ من تسجيلها تعجبني، وكأن كاتبها هو شخص آخر غيري، لم يكن ذلك أبدًا بغرض الانتهاء من مخطوط روايتي، فأنا سعيد، سعيد بشكل ما لكونها رواية غير مكتملة، فقد كانت أمي تقول دائمًا "إن كملتْ خاف منها".

كانت الناس تسير كقناديل قارب الزيت فيها على النفاد، أو كآلات فرغت خزانات الوقود فيها، تخمد ملامحهم وينسحب منها البريق، وكلما مر أحدهم ورمى السلام كنت أشعر بأني لا أقوى على النهوض، تلفني الأغلال من بين يدي ومن خلفي، وأسأل نفسي: لماذا انحرف مسار حياتي؟ عشتُ هذه الأحداث وأنا لستُ جزءا منها، كما الحال في الأحلام، تمامًا أنا، يُهيأ لي بأني البطل الذي خطط لكل شيء، ولكن كيف يكون البطل هو نفسه المتابع لسير الأحداث؟ في الحلم وحده يمكن ذلك، هل أكون غائبًا عن الوعي؟ هذا يمكن في حالة واحدة فقط، لو بنّجوني ونمت شهرًا، ولكني مستيقظ، هه، مستيقظ، أنا عمر الترزي، أنا عمر سعيد إبراهيم، صاحب أزياء الشرق، كُل من يشعر بأنه في مكان ليس مكانه يكون ثرثارًا، يستهلك كلامًا كثيرًا ومُعادًا عن نفسه، اسمه، سنه، مهنته، عنوانه ومكانته، ولكن لماذا لا

يـرد عـليّ أحـد؟ لـو كنـت في كامـل وعيـي واسـتيقاظي فلـماذا لا يعـيرني أحـد اهتمامًـا ولـو حتـى بلفتـة؟

لمـاذا لا يوجـد حـولي أطفـال؟ معنـى الـبراءة الحقيقـي، لـو رأيـتُ طفـلًا سـأصدق أني لسـتُ في حلـم، هـل اخترقـتُ الصلابة الماديـة حتـى أوشـكتُ عـلى الاحـتراق؟ وأصبـحُ روحًـا تسـتعد لتمثيـل دور جسـدي ليـس لهـا. مؤكـد بـأني في مُنعطـف طـارئ وسـأخرج منـه قريبًـا، أحـسّ بـأن شـعيراتي المخيـة تطقطـق وتتحـول لأليـاف، تجـبرني عـلى التحديـق في الأشـياء مليّـا، هـل هـو الجنـون قـد أصبـح عـلى المشـارف؟ هـل كل مـا أصبـح مطلوبًـا منـي هـو مقاومتـه قـدر اسـتطاعتي، يبـدو بـأن هـذا التخمـين الأخـير صحيـح بنسـبة كبـيرة، فقـد أصبحـت أواجـه صعوبـة وتلعثـمًا عنـد البحـث عـن كلـمات تناسـب إحسـاسي، أشـعر بـأن صـوت الكلـمات في مخـي يتمـزق كـما تقـرط شرشرة مسـنونة حزمـة برسـيم، وأنـا في الخضـم تائـه، أحـاول عبـور غابـة كثيفـة، أتأمـل موقعـي، فالرؤيـة طـوال الوقـت غائمـة وتدعمهـا سـتارة محفوفـة بالألـوان، وأنـا مـن فـوق الأطيـاف أعـبر النـاس كفقاعـة، رغـوة صغـيرة تأمـل بـأن تجتـاز أمـواج المحيـط، وأشـعر بـأن متابعتـي للنـاس والأشـياء نـوع مـن الحملقـة العميـاء.

كنـت أحـاول جاهـدًا أن أتذكـر مـا يمكـن أن يغيبـه النسـيان، أسـن ذاكـرتي لكـي لا أنسـى التفاصيـل، ففـي نهايـة المطـاف تُـصَرُ الحيـاةُ في منديـل الذكريـات، ولا يمكـن إعـادة الأحـداث ذاتهـا أبـدًا، ترقـد في ملكـوت الغيـاب للأبـد، كنـت أتلعثـم وأنـا أوجـز مـا رأيتـه في كلـمات أو جُمـل، كلـما تفوهـت بكلمـة خاننـي معناهـا واسـتعصى عـليّ الفهـم.

أشعر بالمزيد من الانبهار المخلوط بالتوجس عندما يمر أمامي شخص عار، رجلًا كان أو امرأة، بدأ النوع يتماهى ويفقد حِدّة الفصل، يرمي السائر السلام بمنتهى العادية، يقوم بملاطفتي بتغيير صيغة السلام أحيانًا، حركات تُبيّن حُسن النوايا، ولكنها أيضًا بها شفقة على حالي العاري كما يروننني، كنت بالنسبة لهم غريب الأطوار، وكانوا بالنسبة لي مصابين بلوثة عقلية، وأسأل نفسي: لماذا لا نتلاقى على أرض واحدة؟ اقترب مني شاب لا أعرفه وقال:

- لماذا تقف عاريًا يا أخي هكذا؟

خلعت الجاكيت "الفايبر" وأمسكت بقميصي من عند الأساور ومددت يدي له وأنا أصيح:

- هذا قميصي. أنا مكسو بملابس وحياة أمي. حتى شوف. شوف.

فرد عليّ وكأن صوته يأتيني من الآخرة:

- لا. ذراعك عارية. حتى شوف أنت. شوف.

برغم تأكدي من صحة إحساسي، فإنني كنت أثناء الحوار أشكُ في نفسي، كل هؤلاء الكومبارس يمثلون دورًا معلومًا ويبتغون نتيجة ما، هل يريدون أن يعيدوني مرة أخرى خلف البوابة؟ ولماذا سيريحهم ذلك؟ ربما سيريحني أنا، على الأقل كان النزلاء والأطباء يلبسون ما يزيد على الحاجة، كانت رؤية سلبية بالفعل، ولكنها الآن تحولت لرؤية إيجابية أكثر مما يجب، ستُحرق شعيرات الإبصار بسبب قسوة التغيير وكثافته، كنت هناك خلف البوابة أضمن لقمتي، أما الآن

فلا أحصل إلا على اشمئزاز المارين وتعاطف المحسنين، كيف وصلت لهذه الحال؟ هل ضُفرَتْ قصتي مع قصص من حولي من الناس وأصبح من الصعب فك اشتباكها؟ هل كان يجب عليّ التشبث بمنطقي ولغتي مهما كانت التضحيات؟ لقد سمعت أسماء يُخال لي بأنها ليست مصرية، فهل يوجد مصري اسمه سيف باشا؟ وهل يوجد أحد الآن يقول كلمة مثل عفارم؟ أيكون الرجل تركيًّا؟ تبدو الكلمة قديمة وتراثية، هل عُدت بالزمن أو عاد بي؟ ذاكرتي لا يمكنها استعادة أزمنة تطير فيها رؤوس العباد ويبقون برغم ذلك على قيد الحياة! هل يحتاج الفصل في هذه المسائل المربكة لأطلس جغرافي أو تاريخي أو فهرس للأماكن؟ يُهيأ لي بأن هذا الموضوع يحتاج حفرًا في الأعماق، فيختنق عالم، ويولد عالم آخر مختلف، مختلف تمامًا.

شعرتُ بفتور نسبي ورغبة كبيرة في الانزواء، انطويت وقرفصت، أحسستُ ببرد شديد يفتك بضلوعي، برغم الشمس الساطعة والضوء المنتشر.

* * *

كانت رحلة غريبة كشفها صاحب البيت، لم تتبدد خلالها شكوكك، كنتَ تشعر بأنك ستقابل جدتك عما قريب في مكان ما، ستقابلها وتتحمل جنونها، كان رأسك مُهدّلا كشجرة مثقلة بالثمار، وأفكارك مُرتبكة، تغوص في الأرض وتشعر بها تبتلعك، كأنك تقفُ فوق رمال ناعمة. دخلت البيت مُندفعا كالمجنون، نكشت الدولاب وجبت عاليه

واطيه، وقعتْ ملابس جدتك كلها على الأرض، هبشتَ بأظافرك كل المحتويات لتبحث عن شيء واحد، الكفن، أين كفن جدتك الذي اشتريته لها منذ أسبوعين؟ فصاحب البيت لا يهمه إلا دفع الإيجار أول كل شهر، وكثيرا ما كان يهذي، ويكذب أحيانًا، لا يثبث أبدًا على رأي، فلا يجب أن تصدقه، ستبحث بنفسك عن جدتك.

تخلّعت ضُلف الدولاب المخلخل، ووقعتْ كل المحتويات، زجاجة عطر قديم على شكل تمثال، وجزء من قرص مشبّك ملزوق في جلباب نبيتي هالك النسيج، ومكحلة سوداء مخرومة، لم تجد الكفن الذي استقر منذ مدة داخل تجويف مصلّية لا يستخدمها أحد، المصلّية موجودة ولكنها فارغة. لو كان صاحب البيت يُخرّف فأين جدك فايز، كان يقف هُنا، لا، بل هُنا، أين أرجوحة الهواء المُعلقة بِصُرّة من الحديد؟ وأين الكرسيّان المكسّوان بالقطيفة؟ بل أين جدتك نفسها؟ هل ماتت حقا؟ جعلتك هذه الملاحظة تستغرق في التأمل، هدّك التعب والإرهاق من جديد، عاد البيت فقيرا بلا أم ولا جدة، خرجت إلى الشارع، قابلت صاحب البيت للمرة الثالثة، فوقف أمامك واثقا وقال:

- ماتتْ، صدقني ماتت، لما جاءها كثيرا في مناماتها شخص توفي منذ زمن. كانت تهذي بكلمات لم يستطع أحد فهمها. مرجيحة حديد لها أذرع تتطوح. مصانع دخّان كبيرة. مسكينة. الله يرحمها.

تركته وجلست مقرفصا في ركن على حرف المصطبة النائمة أمام البيت، لم يكن همّك كما في السابق منحصرا في

متابعة السائرين في الشارع، ولا حتى في الاهتمام بمن يلبس ومن يقلع. ولكن اهتمامك انحصر في فك شفرات كُل ما حدث، ومحاولة تفسيره من جديد.

-٨-

في هـذه اللحظـة، فيهـا بالـذات، تسـاورني الرغبـة في العـودة مـن جديـد خلـف الأسـوار، هـل وصلـتُ إلى هـذا الحـد؟ أعـود إلى البوابـة برجـلي؟ كان خروجـي منهـا بمثابـة مُعجـزة، فكيـف أرجـع مـرة أخـرى للسـجانين؟ حيـاة أي إنسـان مليئـة بالـصراع مـن أجـل لا شيء. كرهـتُ الصراعـات، وأريـد العـودة لأعيـش بطريقـة طبيعيـة تحـت حكـم الحـراس مـن جديـد.

رجعـت إلى المحطـة مـرة أخـرى، أنتظـر الميكروبـاص الـذي لا يتغـير لونـه، ولا سـائقه، أسـتقلّه كبسـاط ريـح بأربـع إطـارات، هـدّني الانتظـار واحتجـت طـوال الوقفـة لإنفـاق طاقـة عصبيـة كبـيرة، تأخـذني الأفـكار وتـدور بي حـول سـؤال واحـد: مـاذا ارتكبـتُ مـن أخطـاء حتـى يُفعـل بي كل هـذا؟ لقـد خرجـتُ مـن البيـت الـذي تركـتُ فيـه أمـي وجـدتي عـلى أمـل حـل مشـكلة أبي، فتحولـت حيـاتي نفسـها لمشـكلة لا حـل لهـا. حاولـتُ دفـس لـوني الرمـادي الـذي هـو أصـل الحيـاة عـن أعينهـم، خرجـتُ لأجـد جميـع النـاس لا يعرفـون إلا لونـين أيضًـا، ولكـن بعـد أن تركـتُ المستشـفى فشـلتُ في تحديـد أرض أقـف عليهـا، اسـتبدّ بي يـأس مُطلـق، وأردت الابتعـاد عـن كل مـا يربطنـي بسـيرة مـن رأيتهـم في رحلتـي كلهـا، أصبحـت أرى النـاس ككتـل صلبـة لا تتميـز عـن باقـي الجـمادات بـشيء، لا أحتـاج بينهـم إلا لصَدَفـة كبـيرة تُخفينـي عـن الأنظـار، فـلا مـا أراه يقتنعـون بـه ولا مـا يرونـه يـروق لي، كأننـا صرنـا نوعـين مـن النـاس لا صِلـة بينهـما،

لا يربطهما ما يربط سربًا من طيور أو قطيعًا من غنم، دائمًا يسود خيالي ضوء باهت بلا ظِلال، حاولتُ معرفة ما يشغل خيالاتهم وفشلتُ، كانوا يتدفقون أمامي ثم يعبروننني، أشعر بهم كأثير حلم يمر من خلال ثقب صغير، ينتشرون في كل الأماكن ويحتلونها، ينادون على بعضهم بعضا بلغة هم فقط يفهمونها، يخترقون حُجُبي إما ببطء وبلادة وإما بإيقاع لاهث سريع، وفي الحالتين لا يمكنني الالتفات إليهم، في البطء يمرون كالمرسومين فوق صفحة ماء أُلقي فيها بحجر، وفي السرعة يمرقون كأشياء لم تمر، وفي الحالتين أشعر بأني أقفُ وحيدًا، وخائفًا.

في لمحة كأنها الطيف جاء الميكروباص ليحملني إلى البوابة مرة أخرى، قبل ركوبي لعِبتْ في دماغي فكرة، لماذا لا أستفز السائق هذه المرة؟ سأسأله، ما رأيك في الجاكيت "الفايبر" الذي ألبسه؟ لم أكذّب خبرًا، جسلتُ بجواره، ولما سألته أجاب: ولكن القميص يعجبني أكثر. وهُنا تأكدتُ من أني أنا، أنا نفسي عمر سعيد إبراهيم، عمر الترزي وصاحب محل أزياء الشرق، ولكن السائق بدا عجوزًا وأكبر بكثير من المرات السابقة، كان له طقم أسنان يقع من فكه العُلوي عندما يضحك، ورأيتُ شعره خفيفًا وفزعًا كقش الأرز، ولكنه هو، هو السائق الذي يتجول بي بين الأزمنة المتعاقبة، لم يكن أحد معي من الركاب، حتى في الميكروباص صِرتُ وحيدًا، تنفس الرجل بعمق وقال:

- لماذا ستعود إليهم؟

ولم أرد عليه. كانت الرغبة في الخروج من هنا تنهشني،

بـأي طريقـة، بـأي ثمـن، وأصبحـتُ أضغـط عـلى نفـسي لكـي لا تطلـب الخـروج للعـراء، كنـتُ أفتقـر للحريـة، والآن أصبحـتُ أخشـاها، بينهـم كنـتُ أشـعر بوجـودي ووعيـي، انقباضـات وتعبـيرات الآخريـن تسـاعد الـدم في عروقـي عـلى السريـان، لم تسـعفني ذاكـرتي اللفظيـة عـلى التحكـم الكامـل في نفـسي، تمـر بي تصـورات كثـيرة بـلا عـدد، تتزاحـم، فأضعهـا بـلا وعـي كامـل في الجـزء الافـتراضي المسـئول عـن اسـترجاع الحقائـق، ثـم بعـد ذلـك، لم يعـد باسـتطاعتي تمييـز مـا مـر ممـا ينتظـر دوره في المـرور، ولا مـا حـدث لي عـما حـدث لشـخص آخـر.

توقـف السـائق أمـام البوابـة، نزلـتُ ووقفـت، أخرجـت مـن جيـب الجاكيـت "الفايـبر" جنيهًـا غريـب الشـكل والألـوان، عجيـب الحجـم والرسـومات، نظـرت إليـه وتذكـرت، لقـد أعطـاني أحـد هـذا الجنيـه في مهمـة قريبـة، أو حلـم مـا. لا أتذكـر. كان جنيهًـا قديـمًا، مـددتُ يـدي بـه للسـائق فقـال وهـو يُطلـق ضحكـة دوت في المـكان:

- لم تدفـع في المـرة السـابقة. ضعـه في جيبـك. ربـما فصّلـتَ لي بـه قميصًـا في محلّـك، في أزيـاء الـشرق، قميـص يشـبه قميصـك الكتـان اللبنـي الـذي ترتديـه الآن تحـت الجاكيـت "الفايـبر" لا تقلـق. الحسـاب يجمـع.

هـذا الرجـل يعـترف بـأني أحمـلُ فـوق جلـدي ملابـس، ولكنـه لا يعـترف بذلـك للنـاس مـن حـولي، قالهـا وهـو يسـتعد للانـصراف، تركنـي وحـدي كـما فعـل مـن سـبقوه. سـأخلع عنـي ملابـسي حتـى أريـح كل مـن يـراني، بالفعـل، بـدأت في خلـع الجاكيـت، ثـم فككـتُ زرايـر القميـص، والبنطلـون، لم يبـق

إلا اللباس، فخلعته هو الآخر، جمعتُ ملابسي وصررتها في الجاكيت، ربطتُ كمية كبقجة، وقبل أن أصل للرجل الذي تعرّف عليّ، السائق الذي عرف أني عمر الترزي، وصاحب محل أزياء الشرق، قبل أن أصل لسيارته طار بها، في لمح البصر اختفى، لم يبق منه سوى كلمات تطن في أذني بجرْسها، ولم يبق من سيارته إلا غبار الطلعة الأمريكاني المتهورة. توقفتُ أمام البوابة لأحدد ماذا سأفعل، إذ إني حتى هذه اللحظات لم يكن باستطاعتي تحديد مصيري بشكل واضح، وقفتُ عاريًا لأوحّد الرؤية، خلف البوابة يقف رجل الأمن الأسود النحيف الذي رأيته في المرة الأولى، اقتربتُ من البوابة بحذر، لمستُ حديدها كأعمى يتحسس بشرة أنثاه، اقترب الرجل الأسود وضحك فبانت أسنانه البيضاء وقال:

- لماذا جئت إلى هنا، لماذا جئت مرة أخرى؟

وقفتُ والملابس مصرورة في يدي، تنسّمتُ هواء مُنعشًا وباردًا، ضربتْ المكان إضاءة قوية وصادمة، التف حولي جمع من الناس، ملامحهم جديدة لم أرها من قبل، في نفس اللحظة التي رفعت فيها ملابسي في يدي كَراية استسلام ووقفتُ عاريًا، كانوا جميعًا قد كَسَتْهم الملابس.

القسم الثالث

الاختيار

-١-

الآن، أتذكر كل شيء، كل ما حدث حدث وكأنه بالأمس، كانت العتمة سائدة، وأنا أحدق في طاولة فوقها أوراق بيضاء، وهيئ لي أن الأوراق المصفوفة لم تلوثها الأفكار بعد، وبجوارها أوراق أخرى ملوثة، رواية لم تكتمل، وفي معصمي ساعة تسيّرها تروس، وتدور تحت باغتها عقارب، حركتها بطيئة كالنبض، وتُثقل يدي بأستيك له حلقات مفصلية على شكل جلد ثعبان، وجفناي، تشدهما الجاذبية الأرضية فيشتعل خيالي، ليُكمل عملية التلويث، ويُتم الرواية التي لم تكتمل بعد.

سمعتُ دويًا حادًا كطبل النقرزان، وأُطلقت فرقعات من مدفع مُزعج حوالي مئة مرة، بعدها قام أحد التمرجية بتسليمي أبي، بالأدق أعطاني رأسه، حملتُ الرأس بيد، وبالأخرى تسلّمتُ بعض الكساوي القديمة الخاصة بجسد أبي المفقود، كانت مصرورة في بقجة، استوقفني رجل الأمن الأسمر الطويل وأعاد لي رسوم الزيارة التي دفعتها قبل أسبوعين، تقريبًا قبل أسبوعين.

في البداية، أوقف لي أحد الحراس حمارًا، وفوق بردعته فرش سجادة ناعمة، جلستُ فوقها وأخذتُ الرأس في حِجري، اهتز الحمار حتى أصابني الخدر، ونمت، قال لي أبي الراقد في دفء ملابسي:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

فنظرتُ للكيان الذي لم يعد يتعدى الشبر وأجبت:

- بلاد الله واسعة.

صمت أبي بعد ذلك وكأنني أعطيته ردًا، حاولتُ تعديل فوطة من البفتة كانت مربوطة حول ما تبقى من عنقه ليبدو وجيهًا بقدر المستطاع، في البقجة كانت مدفوسة بعض الشيلان الكشميرية الملونة، بدت قديمة الطراز إلى حد ما، ذكرتني برائحة مستديمة تخرج من ساعتي أم عقارب، مزيج من عرق قديم غير مُنفّر مع رائحة مسحوق غسيل تعرض للبخار، تحتوي البقجة أيضًا على حذاء أحمر فيه تعاريج غُرز مشغولة، وسيور تنتهي بتوكة عريضة، يبدو الحذاء قديمًا هو الآخر، وبما أني لم أكن أعرف شيئًا عن أبي منذ أيام قليلة؛ فمن الصعب كذلك أن أعرف شيئًا عن ملابسه. تحرّك الرأس وأوشك أن يهوي من على ظهر الحمار، فتح أبي عينيه في اتجاهي وقال:

- هل خرجنا بمحض إرادتنا؟

- لا أعرف.

- هل نفحنا أصحاب المستشفى قراطيس الوهم؟

- لا أعرف.

كان الحمار يسير بنا عبر طرق تبدو معلومة له من قبل، فلم يتوقف ولا مرة واحدة، ارتفع أذان العصر منذ قليل، والشمس تُلوّن صفرتها الأرض، ويضيق الأفق ويختنق، نبدو أنا وأبي والحمار كما لو كنا نسير في عالم خيالي، أو كأننا وُضِعنا

في قمقم كبير من نحاس تمهيدًا لاندفاعنا دخان كثيف من بزبوزه.

مسحتُ فم أبي بالبفتة المعلقة تحت فكه، كان فمه مليئًا باللعاب، ولما ارتاح وأيقن بأن منظره على ما يُرام سألني:

- هل أنت حاوي تأكل الزجاج وتلاعب الثعابين وتقفز من أطواق النار؟

- لا. لماذا تسأل هذا السؤال الغريب يا أبي؟

- لو لم تكن كذلك فكيف أخرجتني إذن؟

كان من الواضح أن الرأس عندما يكون وحده يفكر بطريقة مختلفة، فقد شرحت لأبي في السابق بأني لا يد لي في إخراجه من البوابة، فَهُم الذين أطلقوا سراحنا برضاهم، لم يبدُ عليه الاقتناع، لاحظت فتح البوابة على المصراعين، واختفاء المستجوِبين في الداخل والخارج، فمن شاء فليدخل ومن شاء فليخرج، بعدما سرنا لمسافة قليلة، أو بشكل أدق، بعد سير الحمار بنا لمسافة قليلة، كانت من خلفنا تسير حمير تحمل مرضى ومتعلقات وزوارًا، ولكننا كُنا في أول الموكب، أو الدليل، اختفت المعالم التي أعرفها وظهرت أمامي بوابة خشبية كبيرة، سُمكها يزيد على سمك جدار وأطول من بناية من ثلاثة أدوار، يقف أمامها نفس فريق الحراس الذين تركوا بوابة المستشفى، ولكنهم كانوا أكثر عددًا، يفتشون الداخل والخارج بدقة.

وما أن اقترب ثلاثتنا حتى فتحوا لنا البوابة على آخرها، عندما أفسحوا الطريق أصدرت البوابة الخشبية شحيرًا

كساقية فاسدة، تأكد أحدهم أولًا بأني أحمل الرأس في حجري، وسأله حارس آخر على الضفة الأخرى:

- هل وقع الجزاء؟

فأجابه الحارس الأول وهو يتفحص رأس أبي ويفرك أصابعه:

- وقع.

وقبل عبورنا أنا وأبي فوق حمارنا هشّ حارس ثالث على الحمار بقرف، ركنه أمام البوابة ونحن فوقه، فقلت له محاولًا لفت انتباهه لحالنا:

- هل يمكننا العبور؟

نظر الرجل لرأس أبي الراقد في حجري، وقال بعد أن سحب شهيقًا عميقًا:

- سنجعل من على الأرض جميعًا يحترمون الحراس.

- هل يمكننا العبور الآن؟

سألته مرة أخرى فملّس على لحيته وضم أطرافها في قبضته وقال:

- بالطبع. يمكنكم. ولِمَ لا؟ يمكنكم جدًا. تفضل.

* * *

الآن، أنت في طريقك للمستشفى لاستلام ما فقده أبوك، وقفت أمام البوابة كالمتسول، انتظرت في طابور طويل لا ترى آخره، كل هؤلاء لهم أشياء ضرورية عند الحراس؟ وقبل أن

تكمل السؤال الدائر بداخلك، اقترب منك رجل أمن طويل وقال بصلف شخص محروم تقلّد وظيفة مرموقة:

-أنتَ تنتظر سعيد إبراهيم. أليس كذلك؟ تعال معي.

تترك الطابور وتذهب مع الرجل الذي هيئت لك رؤيته من قبل، جذبك من يدك في أبوة واتجه ناحية بوابة أخرى أصغر من السابقة، ثم قال:

-الجثة سيأكلها الدود. الجثة سيأكلها الدود.. الجثـ..

أين سمعتَ هذه العبارة المملة من قبل. ولماذا يقولها الرجل الآن وأنت تستعد لاستلام أبيك؟ تدخل دهليزا قصيرا وتجتاز بعده ردهة منحدرة، يبدو أنها كانت تستخدم لصعود وهبوط الكراسي المتحركة التي تحمل المرضى، بعد أن قطعت الطريق بالكامل فُتِح باب كأنه لسرداب، دخله الرجل لبرهة وجيزة، ثم خرج وفي يده شخص يسير معه، كامل مُكمّل، لا ينقصه إلا الرأس، قميصُه مقلّم عريض من الكشمير، وبنطلونه مكوي وله توكة مضبوطة فوق الكُبشة تماما، وحذاؤه لا ينقصه إلا ربط فردة واحدة وتلميع الفردتين، قال حارس الأمن وهو يتبسم:

- هذا هو أبوك. سعيد إبراهيم. أين الحلاوة؟

مد يده اليمنى، وفي يسراه يتشبث أبوك، يقوده الرجل، ويمشي أبوك بانتظام شخص له رأس ويتمتع بجميع المشتملات، أخرج رجل الأمن الطويل من جيبه زعبوطا مقلما من القطن، دسّه في كفك وقال:

- هذا يخصّ أباك.

فتبقيه في كفه وتقول له:

- حلال عليك.

قَنَعَ الرجل بالزعبوط، وضعه على رأسه بطريقة مُرتجلة وفكاهية، وكَفّ عن طلب الحلاوة. فسألته:

- هل يموت أحد في المستشفى هذه الأيام؟

فرد وهو سعيد بأن يوجه له أحد سؤالا:

- كل الناس تموت. تموت يا بيه. وهل يبقى أحد. كلهم يموتون.

سلّمك حارس الأمن الطويل أباك، ثم كبس الزعبوط في الرأس، كان يبدو سعيدا وهو يترفّع عن طلب الحلاوة ويمنح الرأس زعبوطه. ولكن كالعادة، بدأتْ الأسئلة تنخر كل طمأنينة بداخلك. من أين تعرف بأن هذا الرجل مقطوش الرأس هو بالفعل أبوك؟ لم تشعر بأي نوع من أنواع كيمياء الجسد، لم تحس بأي انجذاب تجاهه، ولكن لم يكن هناك طريق آخر، استلمت أباك وسرت في اتجاه البوابة الكبيرة السوداء، خرجت وفي يدك ذراع تضخ فيها الدماء ولكنك لا تستطيع إدراك أي مغزى غير ذلك، كان مزعجا جدا ألا يكون بينكما حوار، من أي نوع، ولو حتى عن مواضيع مكررة ومملة، كنت حُرا على أية حال، توجه أسئلتك لأبيك كيفما تريد، فأنت تعلم بأنه لن يسمعك أبدًا. صحت في الرجل الذي أصبح عليك أن تصاحبه في رحلة طويلة قادمة:

- كيف يمكنني أن أشعر بك يا أبي؟

سألت نفسك، ضغط الكف الممسكة بكفّك ضغطة

خفيفة حانية، وقبل أن تلتفت توقف الضغط وعادت الأصابع لسيرتها الأولى، استسلمت للإحساس التقليدي الذي ينتاب أي ابن يلتقي أباه بعد غياب طويل، أما الانطباعات الجديدة فقد نحيتها جانبا، كنت تشعر على أية حال بأنك حصلت على غنيمة، فأنت تمشي مع أبيك. وهل يصدق ذلك أبدًا؟

تفتح الباب لآمالك كي تنمو ذاتيا، سيكون لك في رحلتك أب، أب فاقد الرأس نعم، ولكن لا بد لأي شخص أن يكون أبوه ناقصا أي شيء، لماذا تتخيل دائمًا بأنك لا بد أن تحيا مع أب مثالي؟

لطالما تخيلت أن أباك يعيش في مخاطرة صعبة، وعليك أن تقوم بدور المنقذ الذي سيُخلصه من آلامه عن طريق مغامرة تتسم بالذكاء والحنكة، كان دماغك مدججًا بالتحليلات العميقة، والبريئة، وكان هناك مد تساؤلي يتوغّل في مخّك بطريقة يصعب عليك متابعته أو حتى وصفه، ولكن وجود جسد ينتمي إليك كان شيئا ممتعا على أية حال، ممتعا جدا.

-٢-

أثارت الحمير خارج البوابة الخشبية الكبيرة زوبعة من الغبار، كانت الدواب تمشي متقاطرة ومندفعة بسبب انحدار الأرض، لفظتنا البوابة إلى الخارج بسرعة، كنتُ حريصًا وأنا أحافظ على توازني، ورأس أبي يتدحرج في حِجري، حلّقت أمامي نفس الطيور التي كانت تحوم حول العنبر في المستشفى، طيور لا يوجد فوق جلدها ريش، لها فقط أطراف أمامية صغيرة تتحور على شكل أجنحة تطير لارتفاعات محدودة، تقترب مني فتظهر عظامها المجوّفة، وبطنها به ثنيات مترهلة كالكرش، تلتقط بقايا ثمار جافة ومنثورة على الأرض، ثم مرة أخرى تطير.

أخرجت صورة أمي من جيبي، أخرجتها من جيبي، تأملتها، كانت مبتلّة من أثر العرق وحوافها مثنية، صورة صغيرة وجدتها تحت مرتبة جدتي، ولأنها صورة وحيدة فقد اكتسبت مهابة بشرية لا ينقصها إلا تدفق الدم، واكتست بعروق وأوردة تنبض بالحياة.

صُبغت الأرض بلون الغروب، بساط ذهبي ناعس وقابض، وحوافر الحمار تحرث أتربة مستمرة تطير في وجهي، كنا أول الطابور، تتبعنا حمير أخرى تحمل المُفرج عنهم، كان أحدهم يمتطي جملًا ويمشي خلفنا، وفوق سنم الجمل متعلقات كثيرة في حجم هودج، يمشي الجمل ببطء ولكنه يكاد يحاذينا.

عند ابتعادنا عن سلسلة البوابات التي لا تنتهي ظهرت المدينة من بعيد وكأني لا أعرفها، استحالت لمكان آخر، مكان لا يشق بسهولة مجرى في الذاكرة، الأرض الخضراء تحولت إلى تلال طينية جافة تبزغ من بين شقوقها حرائق صغيرة وأدخنة كأعقاب سجائر كثيرة مشتعلة ومرشوقة في الأرض. وللمرة الأولى ظهر أمامنا أطفال، كانوا يقفزون حول الدواب، وفي كل الاتجاهات يلعبون، ولأول مرة أيضًا، أرى أبي يبتسم، لم يفعلها منذ عرفته. لم أكن مُدربًا على قيادة الحمير، كان همّي الأكبر هو التوازن فوق ظهر الحمار للحفاظ على الرأس، رأس أبي.

نفس الطيور الغريبة كانت تنفض أجنحتها القصيرة بالقرب من رأسي، فينتج ذلك ماء مخلوطًا بفضلات، سائل له رائحة عطنة خمرانة وملمس زيتي مقزز.

تأملتُ المدينة الخامدة، لم يكن فيها دليل واضح على وجود حياة، كانت الأحجار كثيرة والأتربة تملأ الشوارع، ولون الحقول الأخضر استحال لصفرة قابضة، يغلب عليها لون برتقالي فاقع، وتميل طوال الوقت للون الأحمر، وأعشاب كثيرة وغريبة في الأرض نَمَتْ، تشعّبت شواشيها المغبّرة حتى طالت أبواب البيوت وكادت تدفنها بين شِعابها، حتى البيوت شعرتُ بأنها قليلة ومتناثرة، كبقايا جثث في جيش مدحور، وشقوق الجدران ينام فيها الثعبان مستريحًا وغاطسًا في أمان.

بعد مسيرة رُبع يوم بالحمار هيئ لي بأني في منطقة لا أعرفها، أو أعرف بعضها، قابلني أحد المارة فاستوقفته،

وسـألته:

- يا أخينا. هل تعرف بيت جدتي؟

كان الرجـل يحمـل فـوق رأسـه فأسًـا، كان حـافي القدمـين ويلبـس هدومًـا باليـة، قـال والبـؤس بـادٍ عـلى ملامحـه:

- جدتـك! هـل لا تـزال لـك جـدة عـلى قيـد الحيـاة؟ أنـت محظـوظ.

جذبـت الحبـل الوضيـع الـذي وجدتـه فجـأة في يـدي فتوقـف الحـمار عـن المسـير، تأملـتُ الرجـل أكثـر وسـألته:

- لماذا أنا محظوظ. هه. لماذا؟

- لأن لـك جـدة عـلى قيـد الحيـاة. فأكثـر مـا نتمنـاه الآن أن نظـل نحـن عـلى قيـد الحيـاة. ولتذهـب جميـع الجـدات حـدف إلى جناتهـن التـي بهـا يوعـدن.

- هل حدث شيء جديد في الأسبوعين الماضيين؟

- حصلتْ أشياء تُشيّب الأقرع.

-

- الحـراس المنتـشرون في كل شـبر جعلونـا نتمنـى نزول الشـيطان إلى الأرض بأقـصى سرعـة ممكنة.

- لماذا؟

- وعدونـا بأنهـم سـيُشرفون علينـا. يحكموننـا يعنـي. وسـيحملون إلينـا الطـير بعـد ذلـك.

- وهل حملوه؟

- مات الطير قبل أن يفوا بوعودهم.

أخذ الرجل يدق فأسه على الأرض بقسوة كَلَّ منها ذراعاه وهمدا، وعند اقتراب الجمل المُحمّل فوق سنمه متعلقات كثيرة، قال الرجل بعد أن أخذ فأسه يحرث الأرض بتلقائية وهو يصيح فيّ بصوت عال:

- أنا لم أقل لك شيئًا. هه. لم أقل لك. أفهمت؟

نخستُ جنب الحمار بكاحلي فتحرك للأمام بمحاذاة الجمل، نظرت خلفي فرأيت الرجل الغاضب وقد عاد يحرث الأرض كأي فلاح مخلص.

كان المشهد من حولي يتميز بعشوائية، بعيدًا عن أي جَمال، وكان الغوص في ما أرى والاندماج في تفاصيله يعني بالنسبة لي موتًا بشكل ما، وبما أن الموت آت آت فلم أتعجله، لقد حاولت فعل العكس، بنيت قصورًا افتراضية في خيالي تعتمد على أفضل المشاهدات التي مرت بي، كلما ضاقت نفسي تمنيت أن تكون أمي على قيد الحياة، ستكون الدنيا وقتها خالية من الألم، أو على الأقل ألمها يُحتمل. كان مجرد تذكرها يضفي خيالات جميلة تتسحب على كل ما أرى من مناظر وأشخاص. للحظات، انسحبتُ من المشهد بكل ما فيه، وهيئ لي بأن أمي بُعثت في ثوبها الأسود المعتاد، رأيتها وهي تقول لي جُملتها الأخيرة:

- اذهب إلى أبيك ووده. الآن لم يعد له غيرك.

لماذا تعلقت جُملتها الأخيرة وأصبحتْ هي كل ما أتذكره؟ كرماد تبقى من حرق متدين آسيوي، هل يمكن أن تكون أمي قد أعطتني عنوان أبي خطأ؟ والرأس الراقد في حِجري الآن، هل من الممكن أن يكون لشخص آخر غير أبي؟

توقفتُ، فتوقفتْ قاطرة الحمير من خلفي، أشار لنا أحد الحراس أمام طريق يتم تمهيده، طريق موازٍ لما نسير عليه، أشار الرجل صاحب الفأس بيده إلى الطريق الجديد فتوقفتُ لبرهة وسألته:

- يا أخينا. أين المباني الملونة والنساء؟

فتوقف عن الحرث، رفع رأسه فوق كتفه مرة أخرى وقال:

- أنت منهم إذن؟!

- مِمَن؟

- الباحثون عن الزخرف.

- زخرف!

هشّ الرجل على ظهر الحمار وشد ذيله فقمّص وحرن، أمكنني الحفاظ على رأس أبي في حِجري بأعجوبة، أما الطريق الممهد فلم يمر منه سوى الجمل الذي يحمل فوق سنمه متعلقات في حجم هودج، نظر الجمل النظيف باستعلاء لحمارنا الساذج المتواضع والرغاء يفور من بين شفتيه المتهدلتين.

* * *

كان مكان العنق المجذوذ يحتاج لضمادات، فقد سخن فجأة وأصبح عليك التصرف بسرعة، تحسس أبوك بيده الأخرى مكان الانفصال، ثم رفع أصابعه كمن يعاين قرصة ناموسة، من ماء السُبل غرفت مقدار كوب ورميته

فوق عنقه، سمعت له فورة وصوت حطب محروق يطقطق، أصبح بعد ذلك أهدأ وأحسن حالا .

كان الجسد العفي يسحبك في أي اتجاه يريد، بدأتَ تكتشف مزايا عديدة لصمت أبيك، كنت تروي له ما تيسر من قصص لا تزال تتذكرها بعد كل هذه المرمطة، عن جدتك حدثته، وعن مرض أمك، وعن المصحة التي تركتما فيها جدتك، لم يكن بمقدوره تصحيح مسار حكاياتك، حتى لو أراد ذلك.

سِرت مع أبيك ولم يكن بالقرب منكما أحد. جذبك في اتجاه شارع فرعي أرضه غير مسفلتة، انحدرتما فيه باندفاع الجاذبية، بعد أن اجتزتما نصف الشارع تقريبا تلقى أبوك التحيات من الناس باسمه الحقيقي:

"كيفك يا عم سعيد"

"كل سنة وانت طيب يا عم سعيد"

عرفوه من دون رأس أو ملامح، هل لأنه يسير معك. كيف وهم لا يعرفونك أصلا؟

كان الهواء الذي يلفحك منعشا لدرجة شعرت معها بأنك تستمع لأغنيات قديمة متمهلة الموسيقى رائقة الكلمات رقيقتها، وكان أبوك يسير بجوارك كنسخة جديدة بديلا عن نسخته التي طالما تخيلتها في الماضي.

توقف أبوك أمام باب دكان، تجلس، أمامه امرأة تبيع كسكسي في مواعين كثيرة، أزاحها بيده ونحى مواعينها بعيدا، ثم وقف ساكنًا، لا هامة له يرفعها أو يَحنيها لتعرف

مقصده، ولا رأس يهزها لتخمن ما يريد أن ينهاك عنه. كان فوق رأس باب الدكان لافتة مغبّرة صنع عليها العنكبوت لوحا متشابكة ومعقدة، لما تأملت الحروف المكتوبة فوقها رأيتها بدقة "أز.. أزياء.. الشر.. الشرق" ومن تحتها عنوان فرعي أوضح قليلًا "للأناقة أسلوب" وفور أن وقعت عينك على اللافتة ضخ فيك التاريخ المنفلت دفقات قوية محمّلة بشخصيات وأحداث، قبل أن يُفتح باب الدكان عرفت مكان بنك القص ودرج المازورة وبرطمان الكستبان وألوان الخيوط. هيئ لك بأنك رأيتَ رجلا عجوزا كان يأتي لتصليح المكن، كان له أنف كبير يمكنه وحده حمل نظارة بسلسلة كانت تحز في قفاه، يجرش حبة نعناع بشكل دائم، ويحاول طوال الوقت البحث عن ثُقب الإبرة. ورأيت كذلك المحل الصغير، أزياء الشرق، وهو مليء بالزبائن ليلة العيد، تحديدا، وقت ظهور الرؤية، مفتي الديار يذنّب الناس ساعتين ليقول لهم غدا المتمم أو اليوم، والزبائن يحملقون في التليفزيون ويهللون في جميع الحالات. وأبوك يجلس كملك يتحكم بكلمة في رعيّته، ينز العرق من كل ما بان منه، كل نصف ساعة يخرج من تحت يده بنطلون، يقذف به إليك لتفتّح خياطاته من الداخل وتكويه، ثم تحضّر له واحدا آخر، تلصق له فزلين الكمر وتجهّز له كبشة، وسوستة من نفس لون القماش، طلباته كلها كانت مجابة، وبرغم ذلك يشخط فيك وينطر، وبعد أن يخف وطء الأقدام الوافدة للمحل يربت على كتفك ويعتذر بلطف عن كل ما هز كرامتك أمام زبائنه المتعجلين دائمًا.

لطالما شعرت وأنت خلف هذا الباب المغبّر بأحاسيس متضاربة، بين عِزّة مفترضة يطلبها أبوك ومعاملة مهينة تصل حد المرمطة أحيانًا.

كيف هُيئت لك هذه الحوادث وأنت لم ترأباك من قبل؟ أنت لم تكن يوما خلف هذا الباب، ولم تعمل بمهنة الترزي ولو لدقيقة واحدة.

-٣-

تخشّب عمودي الفقري من الجلسة، كل هذه المسافة وأنا فوق ظهر الحمار؟ كنتُ طوال الطريق حريصًا على توازن رأس أبي في حِجري، قطرات العرق النازّ من كوعي وذقني كانت تصنع ثقوبًا صغيرة في الرمال، ارتطامها أكاد أسمعه، ثقلت جفون الدواب وتخدّرت أبدانها، فركنّاها تحت أشجار صفراء كانت في طريقنا، بجوارها نباتات جافة على شكل هيش، انكمشت الحمير على نفسها وكأنها نائمة، لحق بنا في الراحة باقي القطيع، تكوّم المرهقون من طول المشوار، كنا نتلاحق ونرمي ظهورنا ونسندها على جذوع الأشجار، والشمس تعكس ضوءها في أعيننا. رفعتُ أبي من حِجري ووضعته بجواري، مسحتُ فمه بالبفتة المُعلّقة في ما تبقى من عنقه، من كثرة مسحي لفمه أصبحت البفتة خفيفة النسيج كالنسالة، اصفرّ لونها الأبيض. وجعل العرق ملابسي كالمغسولة ويمكن عصرها.

نظر إليّ أبي، انتهك ما بداخل دماغي من ترتيبات، وقبل أن أتمعّن في نظرته وأحاول تفسيرها حدث هرج محدود في صفوف المضطجعين، سرعان ما تحول لحركة ونظرات في اتجاه واحد، عندما تتبعتُ نفس الاتجاه رأيت الهودج، أو بالأدق، الجمل الذي كان يسير بمحاذاتنا، ومن فوقه صندوق خشب كبير له نوافذ مُعتمة وخيوط منسدلة كشراشيب رفيعة من كل اتجاه. توقف الجمل في مكان صعب، لم يفقد توازنه برغم

تمترسه عند بداية منحدر، نزل من الصندوق خمسة رجال أشداء، تكاد ملابسهم تضيء من شدة البياض، أما لحاهم فمصبوغة بلون قشرة الرمان، وقفوا أمامنا واقترب أحدهم مني وقال:

- لماذا تجلسون هكذا؟

- نستريح.

- انصرفوا من هنا حالا. انصرفوا. فصاحب الجمل يبلغكم ذلك.

بعد أن فرغ من إملاء أوامره انصاع من اضطجعوا حولنا للأوامر كذلك، كانت حركاتهم خفيفة بلا ضجيج، يروحون ويجيئون على دوابهم بنعومة يحومون حولنا كالفراشات، تشممت الحمير ذيول بعضها، ثم وقفت مصطفّة في طابور معوج تنتظر النخس أو الضرب، هبّت علينا ريح مغبّرة لها رائحة زنخة، ثم ازدادت الرائحة وفاحت بالعفن. بعدما اجتزتُ المنحدر وطوارا مهشّما يبدو أنه كان طريقا قديما رأيت المدينة واضحة. بساط من خليط أتربة وغبار بلون المشمش الناضج، يمشي الناس وفي أياديهم تروس مدمجة تشبه عجلات حربية صغيرة، يجرون في كل اتجاه، وكأنهم يستعدون لحرب، اقترب مني أحدهم وفي يده آلته العجيبة وقال:

- خذ هذه لك.

خفتُ من جهامته فأخذتها مضطرا. وزعوا على كل من يسير في السرب آلات مشابهة، ولما سألتُ الرجل المتسرع عن

جـدوى هـذا الـشيء الـذي كان مِلكـه وأصبـح بقـدرة قـادر في يـدي، فقـال وعينـه تلمـع بنشـوة غريبـة:

- ألست من مؤيدي الحراس؟

- نعم.

ثم أشار لباقي الطابور من خلفي وقال:

- وهؤلاء؟

- نعم. مثلنا أيضًا. ولكن هل هذه التي في أيدينا أسلحة؟

- إنها أسلحة خاصة بالمؤيدين فقط. وزعها صاحب الجمل.

كان يكفينـي التمسّـح في اسـم الحـراس، فللكلمـة وقـع السـحر عـلى مسـامع الرجـل، مـا أن نطقـتُ بهـا حتـى انفتحـت كل الطاقـات أمامـي، تركونـا نمـر بـبركات صاحـب الجمـل، مـن يكـون صاحـب الجمـل هـذا؟

أصبحـتُ وجهًـا لوجـه مـع مدينتـي التـي أذكـر، اجتـزتُ الرجـل وقافلتـه، رأيـت شـارعًا أظـن أن لـه بقايـا ذكـرى في دماغـي، هنـا كنـتُ ألعـب، لا، هنـا، كانـت الذكـرى مُشوشـة، كأني تركـتُ مدينتـي منـذ ألـف عـام، ارتبكـتْ الحسـابات الزمنية، عـلى مـدد الشـوف رأيـتُ أجسـامًا هُيـئ لي أنهـا لحيوانـات الحقـول، كانـت نافقـة ومتوزعـة عـلى المـكان بعـدل، كل بضـع خطـوات جثـة جلدهـا مقـشر وبدنهـا منتفـخ، متباعـدة الأرجـل ومتصلّبـة. كنـتُ في قلـب الحـدث أفكـر بشـكل مختلـف، فنحـن نتخيـل المأسـاة قبـل حدوثهـا بأشـكال مختلفـة، أمـا المأسـاة نفسـها فـشيء آخـر.

أمسـكتُ رأس أبي بيـد، وبالأخـرى وازنـتُ الآلـة الحربيـة

الصغيرة على مؤخرة الحمار المسكين، من خلفنا كان يسير الرجل الذي أعطانا الآلات العجيبة، ربما ليقيس مدى ولائنا للحراس من خلال تصرفاتنا وتحركاتنا، كان يمشي بجواره رجل حافٍ لا ينتعل شيئًا، يحمل إبريقًا به ماء، قال للرجل الذي كان يبدو قائده بشكل ما:

- المغرب. المغرب.

ورد عليه الآخر:

- فلنتوضأ.

شمّر الرجل وتوضأ أثناء المشي، كنتُ قريبًا منه لدرجة أنني سمعتُ صوت حبّات المياه فوق الرمال الساخنة، تابعته بشيء من المتعة وهو يهرول، والمياه تترجرج في كفّيه قبل أن يلطم بها صدغيه في حركة متسرّعة لا تلمس فيها المياه وجهه تقريبًا.

رفعتُ عيني من على الأرض، فرأيت عند المسافة التي تحجب السماء من الانطباق على الأرض قبّعة من دخان، لم أر بسببها قرص الشمس في غروبه المعتاد.

تمتم الرجل بما يشبه الأدعية، كلمات تتفتت معانيها على باب المقاصد، سمعته والحمار يسير ببطء، ورأس أبي كادت الشمس أن تشويه، ورأيتني وحماري ورأس أبي كما لو أن طفلًا قصّنا من المشهد وهو يلعب، خرجنا من الصورة وأصبحتُ أرى ما يحدث من حولي وكأنه لا يخصني، ولا يهمني، الآن، أصبحتُ على قناعة تامة بأن مقاصدي ليست بالضرورة هي نفسها مقاصد العالم، أصبح لكل منا شأنه يديره منفردًا، لم

يعد الكون يرقد في تصوراتي عنه كما كنتُ أظن.

هُيئ لي بأني أرقد في قرطاس من رصاص، معتم وسطحه أملس، مسحوب القعر عريض الفوّهة، أجاهد في الخروج منه ولا أستطيع، ولا يميل هو بفعل الجاذبية فيدلقني لأرى النور بالخارج. أحسستُ بدماغي ملقفًا لمطحنة من احتمالات لا يربطها شيء، كأن فخا ما لم يزل في طور التشكّل ينتظرني في مكان مجهول. عدتُ بذاكرتي للخلف، استعدتُ نقطة لم تتعد الثانية الأخيرة، بالضبط منذ ورود كلمة "الثانية الأخيرة" ثم انطلقتُ سارحًا حتى بداية الوعي، مهمتي الآن كقصاص الأثر، أتتبع خطوات أعرف بدايتها ولا أرى لها نهاية، أكبر ما أخشاه هو أن أنسى كل شيء، بما في ذلك ذاكرتي نفسها، كانت الأيام تتشابه لدرجة التطابق، حتى أني كنت أتعجب من أن أظافري وشعري يطولان. وهُيئ لي بأن جهة ما تحقق معي، لم أتأكد من ذلك بشكل نهائي، ولكن شخصًا ما مر بي وسألني:

- ما اسمك؟

وأجبت:

- اسمي عمر سعيد إبراهيم. شخص ذهب لمكان ما، أعتقد مستشفى، نعم مستشفى، ليزور أباه، ولم يجده، ولم يستطع الخروج من المستشفى. أنا عمر سعيد إبراهيم، أمي ماتت دون مبالغة في إظهار عواطفها، وجدتي، لا أعرف مصيرها بشكل مؤكد، وفي يدي رواية غير مكتملة، بين الحين والآخر تلكزني شخصيات معينة لأقوم بكتابتها، تُصحيني من النوم، لا أتذكر منهم الآن إلا اسمين فقط، فايز

وحسن. هل قابلتهما فعلًا، أم أيقظاني لأضمّهما لمتن روايتي؟ فقبل الكتابة تكون الذاكرة كقماشة بيضاء، لا نقوشات فيها ولا أحداث، تتخلّق الأحداث وتسعى إليّ الشخصيات عندما أعقد العزم على التذكر، وذاكرتي كانت تخوننني كثيرًا، وتنبهني لوجودها كثيرًا، لكني في الحالتين كنتُ أعجز عن الإمساك بها، فالإنسان يأتي للحياة بذاكرة سادة محمولًا، ويتركها بذاكرة سادة محمولًا أيضًا، يترك النقوش والألوان على عتبة المغادرة، ولذا، فقد قررت ألاّ أتركها بالكامل، قررتُ أن أكتب رواية، كانت الأفكار تراودني، فأتذكر، ولا أستطيع الفصل التام بين ما أعيشه بالفعل وبين ما يهيأ لي بأنني عشته.

قبل أن تتغير المدينة كنتُ أحب جمع أصداف البحر والرسم عليها، نعم، أتذكر ذلك جيدًا، كنتُ أحب الرسم على الأصداف، أسمع الآن وشوشتها، أسمعها وهي تفور بالكلمات:

"الجثة يأكلها الدود.. الجثة يأكلها الـ...

* * *

فقد أبوك حواسه الأربع دفعة واحدة، وبدا اهتمامك به كأي اختيار ذاتي تفعله بإرادة كاملة. كانت حركات طائشة ولا تعرف لها معنى، تشعر فيها بشيء من الارتجال. تحاول الابتعاد قدر استطاعتك عن مطاردة الأفكار الشاردة حتى لا توقعك في أسرها، ترى حياتك بأكملها عبارة عن فتلة ملضومة في إبرة، أنجزت بها أعمالًا لا تتذكرها، وأصبح كل

همّك أن تعقد الفتلة مرة أخرى لتمارس بعض الإنجازات المتبقية، الآن، وبوثبة واحدة يمكنك التوفيق في مهمتك، فوضى ساحرة يجتاحك مذاقها وتحاول تمثلها، تصادمتْ النقائض في إعادة اكتشافك لنفسك.

وتروح في غفوة مسكّرة، ترى بعدها جسد أبيك هُلاما ينبت من لون باهت، وميض ظل يوخذك وكنت على وشك الانصياع له، تماما كأنك في فترة قيلولة وستعاود نشاطك قريبا.

ولّى أبوك وجهته في آخر الشارع، كانت تقف هناك جميزة عجوز ووحيدة فوقها تتململ الطيور، كانت وقفته الثابتة توحي وكأنه يرى، بعد الوقوف لمدة طويلة، تحسس أبوك ثقبا في كالون باب الدكان، ثم انتشى باقي جسده وتمطّع عندما تخلل الهواء مسامه، انتحت بائعة الكسكسي جانبا ولكنها ظلت تقلّب بضاعتها بمقصوصة ألومنيوم مقطوشة اليد وملفوف عليها شريط من قماش.

سِرتَ مع أبيك وأنت لا تعرف مصيرا محددا لما سيؤول إليه حالكما، في نهاية الشارع، دست فوق تضاريس لها في نفسك ذكرى غامضة، وأبوك بجوارك واقف، بدون رأس، كشيء نما في موطن غير أصلي، أو كطائرة تستعد لأن تكون دبابة. طالما تخيّلت له جبهة من فولاذ ووجنتين من ذهب وعين قوية من فضة، ولكن كل ذلك تناقض مع الجسد السائر بجوارك كجوال مُعبأ بالبطاطس. وسألت نفسك، هل هذا البدن هو نفسه الذي فازت أمك بابن منه ذات ليلة؟

– ٤ –

وسط هذا الخراب، وبينما رأس أبي في حجري توقف بنا الحمار، أنزلنا الرجل الذي كان يتوضأ أثناء دخولنا للمدينة، حرصتُ على الرأس، احتضنتها وضممتها إلى صدري لكي لا تنفلت وتتدحرج، أمسكني الرجل من يدي وطاف بي، خطونا فوق تلال من الأتربة لها لون الدخان ورائحة الحرائق، عبرنا حجارة صغيرة، وأكوام طوب كفوائض هدم البنايات، والبيوت التي تركتها تناطح السحاب تقزّمتْ وصارت من دورين على الأكثر، كأني في قرية شُيّدتْ منذ مئة عام، وسألتُ الرجل الذي كان حريصًا على الإمساك بي:

– هل هذه هي المدينة؟

– نعم. ولكن بعد استرداد الحقوق وإرجاعها إلى أصحابها.

حاولت إعادة كلماته إلى مادتها الأوّلية، ما هي الحقوق ومن هم أصحابها؟ كانت الصور التي تتجسد أمامي كلها آتية من الماضي البعيد، قبل أن تتشكّل لي عينان، ولسان وشفتان، هُيئ لي بأن أمي هي أول من سكن ذاكرتي أثناء التخلّق الأوّلي، ربما بسبب حكاياتها عن صعوبة إنجابي، أو بتدقيق أكثر تأخر ولادتي لخمس سنوات كاملة، فبعد زواجها من أبي بسنتين، لم تظهر عليها أعراض الحمل، لم تلفظ ما في جوفها ولم يقب بطنها أو تعاني من أي دُوار. اقترحت جدتي على العروسين إعادة مراسم الزواج في نطاق محدود، لبست

أمي الفستان الأبيض المعمول من الساتان والشيفون، ولبس أبي البدلة الاسموكن السوداء للمرة الثانية، زفّتهما فرقة الدفافين ودوى بجوار البيت طبل النقرزان، ولكن ذلك لم يُجد، ولم يكن له أثر من نفع، ففكرت جدتي في اقتراح آخر، صنعتْ دُميتين خشبيتين بنفسها، ثم كستهما بملابس فاضت عن تنجيد وسادة، زوقتهما بالكرانيش وشرائط الدانتيلا، بعد ذلك طلبت من أبي عدم دخول غرفة النوم إلا بصحبة أمي، وسبقتهما جدتي، وضعت الدميتين بجوار الوسادتين بشكل فيه ذوق وجمال، ثبتت العروسة على وسادة أبي والعريس الخشبي على وسادة أمي، وقبل دخول العروسين الحديثين للغرفة كانت جدتي تطلب من أبي أن يرتدي ملابسه الداخلية بالمقلوب، ويضع على صُرته قرصًا من الرصاص في حجم عُملة، وطلبت في المقابل أن تربط أمي تحت قميصها جزءا صغيرًا من شِباك صيد مستعملة، وبعد ليال سبع صنعت جدتي عروسًا ورقية وثقبتها مرارًا ببنسة شعر، ثم ربطت أحجبة كثيرة استهلكت كراسة، وأشعلت في البخور النار ليُتوّج كل مجهوداتها وتعم الفائدة، وبرغم ذلك باءت كل المحاولات بالفشل. أما في عام النضوب الثالث فكل الأشياء التي فعلتها أمي من أجل مجيئي كانت مقززة، تحممت بماء غُسل ميت، ورموا فوقها ديوكًا مذبوحة بلا رؤوس، كانت تتخبط بدمها الساخن فوق جسد أمي العاري، مرت المحاولات المضنية بأفعال لا علاقة لها بالإنجاب، كالكيّ ورصّ كئوس الحجامة، ووضع مفتاح أحد الأضرحة فوق ظهر أمي، وبطنها متكئ على قطعة كبدة نيئة، والتبرّك

بحمل مولود قبل بلوغه يومه السابع. بعدما أصابهم اليأس ترك ثلاثتهم المسألة برمتها، جدتي وأمي وأبي. مرت خمس سنوات تحولت فيها الحياة إلى مخزن للكآبة المستديمة، وعندما خلت أدمغتهم من الموضوع نهائيًا جاء الفرج من حيث لم يحتسبوا، تعلّقتُ لسبب مبهم في أحشائها، أنا، أنا وحدي دون غيري، وحتى بعد حمل أمي كان لجدتي دور لا يقل أهمية عنه في مرحلة النضوب، كانت تنهر أبي لو أيقظ زوجته الحامل، فذلك سيعيق تشكّلي في تخلّقه الأوّلي. وبعد ولادتي لم يخل البيت من تحذيرات جدتي أيضًا، فقبل أن يفركوا رأسي بالشبّة ويسقوني الماء بالسُكّر قالت جدتي لأبي:

- لا تدخل عليها وأنت حالق ذقنك.

- حاضر.

- ضع بجوار رأس المولود مقصًا لكي لا تقترن روحه بأخيه في طبقات الأرض البعيدة.

- حاضر.

أحسستُ بأن انفصالي عن رحم أمي لم يحدث يومًا، لم أعبر تلك المرحلة بعد، أو على الأقل لم أعبر طقوسها.

كان مجرد حفظ توازني يحتاج لمجهود كبير، الرجل الذي توضأ منذ قليل سحبني من يدي برفق، خطونا على الأنقاض، أخذ يُعلّمني كيف يمكنني تفادي الجثث الملقاة في طريقنا، وكيف يمكنني دفن من لم يسعفهم الحظ ليؤمنوا بالحراس، مكّنني الرجل أيضًا من هضم معارف جديدة، كيف تتحمّل الجثث ضغط الهواء وسقوط المطر،

تُرِكوا عُرضة لعوامل الجو ونهش الضواري. وبعد أن كنت منشغلا بأصدافي التي أرسم عليها. أصبح مطلوبًا مني فجأة أن أتعلم كيف تُوارى الجثث.

طار غبار محمّل بروائح الجيف، اختلط ريش الطيور المتشردة بالأبدان المتفخة، وأصبح عليّ التدقيق عند وضع قدمي على الأرض، فعلى عمق شبر واحد مفروش بساط من الأبدان الهامدة، يهزها العيال الذين يقفزون بلا نهاية، وتهرسها حيوانات ثقيلة بحوافر تهتز لها الأرض، وبدلًا من أن يعلموني كيف يمكنني أن أعيش علموني كيف أتعامل مع الأموات. ركضت حتى استوقفتني، رأيتها، ممددة على الأرض، نعم هي، بدون غطاء يستر جسدها النحيل، كان جزءا من قدميها مطمورًا تحت الأنقاض، وتنورتها بالتخاريم المشغولة محسورة حتى ركبتيها، محدقة في السماء، تحديقتها مخيفة، في نظرتها نفس الحدة والجنون، نعم هي، بلحمها وشحمها ولكن بلا حراك، ولا روح، شعرها هائش كشوشة ذرة تهزها ريح، نعم تأكدتُ بأنها هي نفسها، جدتي.

* * *

هل يستحق تذكر ما فعله أبوك في الماضي كل هذا العناء؟ إذا كنت الآن تود نسيان الحالة التي تعيشها، فكيف تتحمّل تفسيرات لأحداث عشتها وراحت لحالها؟ لو فكرت فيما فعله أبوك بالأمس فلن تفكر فيما يفعله الآن، حسبة مفروضة سلفا.

عندما وصل أبوك إلى آخر الشارع توقف طويلًا، وعندما

وصلت قرب نهاية الشارع لتلحق به رأيتَ أمامك مدينتك الصغيرة، البعيدة، هي المدينة نفسها، مطلية بكركم الغروب، أنت الآن بجوار أبيك، كتفا بكتف، لم تشعر معه بتلك الأحاسيس التي كانت تجتاحك في حضرة أمك، عندما كنت تتدثر معها بكليم صوف، تلاحظ انتظام أنفاسها عندما يثقل لسانها ويتوقف عن ذكر الحكايات، تغفو ولا تشعر بعد ذلك إلا بيدها وهي تمتد بكوب حليب في دفء دمعة العين.

لعبت الريح بالزروع القليلة من حولكما، وطارت عصافير كثيرة من فوق شجرة كافور على مدد الشوف، وأبوك يقف ثابتا، قدماه مدسوستان في حذاء أحمر، صنعت له العصافير رأسا مستعارا، هذا الرأس بالذات يجعلك تصرخ، تستغيث، فهو صغير ويشبه رأس جدتك، له نفس الاستدارة والهيئة، لم يعد بوسعك التنقيب عن الأحزان، فجدتك لم تكن تتورع عن سبّك، حتى في أحلك الظروف، فعندما أغلقوا القبر على أمك بالرمل المبلل بالماء والجبس، وبينما يثرثر رجل بشوش بكلام مُعاد حد الإملال، وقفت جدتك مشدودة الصدر، وكأن من ألقوا بها في الحفرة منذ قليل لا تمت لها بصلة، عينها باردة وغير معنية بما يحدث، ولا يشغلها حزن من حولها، وقفتَ بجوارها وأنت تحاول حثها على تمثيل الحزن أمام الناس فدفعتك بيديها النحيفتين وقالت:

- أمك كانت أحن منك عليّ. وكنت أحبها أكثر منك. أما الآن فهي لم تعد سوى شيء، شيء ميت لا يمكنه نقر حفنة رمل مبللة والخروج من فتحة صغيرة تعلو عنها بمقدار شبر واحد.

برغم قسوة كلامها فإنها كانت تبدو ضعيفة جدا، سنتها الوحيدة تنقر لثتها ببطء، يداها ترتعشان، قدماها لا تحتملان الوقفة أكثر من ذلك، اقتربت منها، حاولت لمس كتفها الضامر، كنت تريد أن تحيطها بالسعادة وبالأحزان في وقت واحد.

– ٥ –

انحسرت مساحة الحنية وصلة الرحم عندما رأيتُ أحد الحراس يقترب مني، تركتُ جدتي الميتة وقفزتُ بعدها عشرات الخطوات، كل ما كان يشغلني هو كيف أنجو بما أحمل، تجلّت أغراض الرجل في محاولة خطف أبي، لن أتركه لهم مهما حدث، تبعتني نفس الطيور الغريبة ضاربة أجنحتها بالقرب من رأسي، وتبعنا حراس آخرون، يسعون للقبض عليّ، يركضون ورائي كما يُطارَد النشّالون، لم أعد أعرف لماذا أجري، ومن هم أعدائي الحقيقيون؟ فقدتُ أمي منذ أسبوعين، وفقدتُ أبي قبل أن يتشكّل وعيي، وها هي جدتي تركتُها وجبة للطيور الجارحة والحيوانات البرية الشاردة. لم أعد أشعر بشيء من حولي، أصبحتُ أملك رأسًا فقط، رأسًا يتشبث بدفء بملابسي، لا يريد أن يتركني، ولا أريد أن أتنازل عن شعرة منه، لم أعد أعرف إلا هذا الرأس، مهما حاولوا إقناعي بألا فائدة منه. كنتُ أركض كالمجنون، والناس من خلفي يركضون، يمدون أظافرهم تجاهي ككلاليب، جلافتهم المتوحشة تتجلى في مطاردتهم العشوائية، داسوا على كل الجثث التي قابلتهم، غاصت نعالهم الغليظة في الأحشاء المكشوفة، أصبح هدفهم بالنسبة لي واضحًا بشكل كبير.

تجمّعت المشاهد الصغيرة من حولي وصنعت مشهدًا واحدًا كبيرًا، كنتُ أجري خائفًا من أن يُعلقني كلّاب أحدهم، يبدو

أن الـرأس أصبـح هـو مطلبهـم الوحيـد، تجمّعـت أهدافهـم كلهـا في كيفيـة انتزاعـه منـي، حاولـتُ أن أسـتعرض الوقائـع كـما مـرت أمامـي منـذ أسـبوعين وفشـلتُ، كنـتُ أَشـبه بشـخص معصـوب العينـين، لا أعـرف كيـف دخلـتُ، ولا مـن أي منفـذ خرجـتُ؟ أي مـكان لفظنـي فـصرتُ عـلى مـا أنـا عليـه الآن؟ أشـعر بـرأسي يطـن بأزيـز ذبـاب بـلا عـدد، هـل سـيعقدون مجلسًـا ليحكمـوا في النهايـة بانتـزاع الـرأس منـي؟ أفكـر في كل ذلـك وأنـا أركـض، نجحـتُ أخـيرًا في الابتعـاد عنهـم بمسـافة معقولـة، اقتربـتُ مـن الإفـلات، لـولا تعثـري في الجثـث الملقـاة بـلا عـدد، روائـح النتـن تُسـدِل غيامـة قويـة عـلى تركيـزي، كانـت الأرض تهتـز مـن تحـت قدمـيّ، والبنايـات والـزروع تنتفـض مـن أقـل حركـة، وهـذا مـا حـدث لي تقريبًـا، رأيـتُ الدنيـا مـن حـولي تهـرب معـي حفاظًـا عـلى الـرأس، وشـعرتُ بـأن خطـواتي لم تكـن واسـعة بشـكل كافٍ، وبرغـم ذلـك كنـتُ أسـبقهم بمسـافة لا بـأس بهـا. بعدمـا تركـتُ البقعـة المتشـبّعة بالجثـث وصلـت وحيـدًا لأرض خـلاء، لا هـي صحـراء ولا هـي منزرعـة، تقـف في منطقـة الوسـط، بسـاط رمـادي فاتـح فيـه بضـع أشـجار مُعمّـرة وزرع صغـير خـاب حصـاده فوقـع ثـماره وجـفّ، جلسـتُ تحـت شـجرة جذعهـا سـميك، وضعـتُ رأس أبي بجـواري، كان قـد ضرب تعسـيلة محترمـة وبالـكاد حـاول فتـح عينـه وقـال:

- لماذا لم تتركني لهم وترتاح؟

طرقعتُ ظهري وعظام عنقي وقلتُ:

- لأني بدونـك سـأفقد كل شيء. تركـتُ جـدتي بعـد مـوت أمـي فماتـت هـي الأخـرى. ولم يبـق لي غـيرك.

كانت الثمار الجافة مُرة ولاذعة، حاولتُ استطعامها لألقم أبي واحدة فألقيتها بسرعة من يدي. تفقدتُ الأجواء من حولي قبل أن يحل الظلام، رأيتُ لافتة كبيرة مُعلقة على أحد المحال التجارية المهجورة مكتوبًا عليها بخط كوفي قديم ومتآكل: "مخصص لشراء جميع أنواع الرؤوس كبير وصغير، والعقود سارية حتى فترة وجيزة. نتعهد بشراء الرؤوس بأسعار ممتازة".

لما ظننته مسمطًا لبيع لحم الرأس واللسان ضحك أبي، كانت هي المرة الثانية التي يضحك فيها، وقبل أن أشرع في السؤال قال:

- انظر داخل المحل.

دققتُ النظر بالداخل، رأيتُ لوحة بالزيت مرسومًا عليها رأس إنسان محتقن الوجه، كأنه صُوِّرَ رغمًا عنه، هل يسلقون رؤوس الناس ويسلخونها؟ سألتُ أبي فردّ وقد اختفت ابتسامته بسرعة:

- كل ما تقوله لا علاقة له بالحقيقة.

وقبل أن أرد انتبهتُ لوجود بيضة داخل المحل المعلقة عليه اللافتة، أخذتُ أبي وذهبت للمكان الذي ترقد فيه البيضة، تخطيتها وملّستُ على الأواني بالداخل، كانت أواني نحاسية عليها طبقة خضراء غامقة راكمتها أزمنة متعاقبة، ولكن كيف توجد في هذا المكان المهجور بيضة؟ هل يمكن أن تكون بيضة لثعبان؟ إن لها استدارة بيض الدجاج العادي الذي كانت أمي تسلقه كل صباح، وربما أكبر قليلًا.

تحسستْ يد غريبة كتفي ثم ربتت عليه بمنتهى الثقة، التفت فوجدتُ رجلًا له لحية بيضاء كالقطن، يبتسم ابتسامة لا تُطمئن، ثم قال وهو ينظر لرأس أبي التي طوّقتها بذراعيّ:

- لماذا تعبتَ نفسك يا بني؟ لماذا جئت بالرأس بنفسك حتى بابنا. فعندنا المندوبون أكثر من الهم على القلب.

استشعرتُ الخطر على الرأس فضممته بكل قوة، وربما بكل قسوة إلى صدري. لم أعد أملك أي قدرة على الركض مجددًا، وفي نفس الوقت، لم يكن عندي أيضًا أدنى احتمال للتنازل عما في حوذتي. اختفيتُ من أمامه بقفزتين، خمّنتُ بأن الرجل العجوز لا يمكنه اللحاق بي حتى وأنا في هذه الحالة المزرية من الإعياء، تشبثت برأس أبي لدرجة الاستموات، وبعد مسافة ليست قليلة لمحت طرف جلباب الرجل صاحب اللحية البيضاء يقترب مني، لم يكن يبذل مجهودًا في عملية الركض، ولكنه كان يشبه الطيور بحركته الناعمة، قدماه لا يرفعهما من على الأرض، ولكنه يندفع برغم ذلك للأمام، في اتجاهي، بلا مجهود، قفزت بكل قوتي ككائن بدائي يجوب الغابات، وطرف جلبابه الأبيض يكاد يجف في قدمي، والرجل يبتسم بشكل مرعب هيّج أعصابي، ثم بطريقة لا أعرف كيف حدثت أصبح في محاذاتي، يسير بجواري جنبًا إلى جنب، وسألني:

- إن لم تفعل ما أريد فأنت الخاسر.

-

- انظر إلى هذه.

ورفع بين أصابعه البيضة التي رأيتها في محلّه، كان مكتوبا على قشرتها بخط متعرج كأنه لطفل "الله" اطمأن قلبي وتوقفت عن الركض، تأملتُ البيضة في يد العجوز، وأثناء اندماجي في فك باقي شفرات النقوش أعطاني الرجل إيّاها. وقبل أن تلمسها يدي خطف الرأس مني وابتلعه الظلام. شعرتُ بالخيبة، تراخت أعصابي وتاه تركيزي، لم أعد أدري أين أقف، ثقلت يدي بالبيضة، هدّني الإرهاق المتواصل، كانت البيضة ثقيلة أكثر مما يجب، وكأنها مُعبأة بالزئبق. رميتها على الأرض بقسوة، لم تنكسر، رفعتها مرة أخرى ورميتها، فتدحرجت بعيدًا، ولكنها أيضًا لم تنكسر، تأملتها جيدًا، لم تكن بيضة دجاجة، ولا ثعبان، كانت بيضة من حجر.

* * *

انحرف أبوك وظل يميل تدريجيا نحو شارع واسع وقطعة أرض منزرعة فَسِرتَ من خلفه، ثم عدوت بأقصى ما عندك من تهور، وجدته يميل تجاه شواهد مطلية بدهان أبيض قديم، مرشوقة وسط قباب وقع بعض آجرها، حجل على كعب واحد ليحصل على المزيد من الانحراف، حاولت إبعاده قدر استطاعتك، ولم يبتعد، حاولت مِرارا، ولم يتوقف عن مقصده الغامض. كان جسده قد تصلّب وظهرت له "مجانص"، كنت تشعر به بشكل ما.

برغم كل شيء لا يمكنك التنازل عن أب وجدته في طريقك، فتعطّشك لوجوده في حياتك جعلك ترضى بأول

معروض، ولكن بعد اقترابك منه أكثر لم يعطك إلا مزيدا من الظمأ، تحاول جاهدا أن تقول الجُملة كما تتخيلها منقوشة في ذاكرتك، بعيدا عن دائرة الإدراك الخارجي. لم تشعر بأن أباك له وجود، ولكن كان له مضمون في مساحة من مخك لا تحسّها بسهولة، نفس المساحة التي تحتفظ بصورة جدتك عندما كنت طفلا، عندما كانت لها سنة واحدة وبدن أعجف، ولكن الفرق بين جدتك وأبيك أن الأولى كانت في زمن سريع تلاشى، أما أبوك، فكان ذكرى ثم تجسد في كائن تراه أمامك. لم يبق من أثرها إلا إحساسك قبل أن تقابله، إحساس جميل برغم كل شيء، أن تُسبل ما تتخيله على أشياء واقعية تراها بالفعل، أن تخترع الحياة بداخلك أولا.

أمسك أبوك عن المشي وتوقفت بجواره، ماذا يريد من مدافن الأجداد؟ أن يلقنك درسا أخلاقيا عن عظة الموت؟ البحث عن الأسلاف لا يقود في الغالب إلى شيء، الآن، يبدو نشاطك الذهني بطيئا، الأفكار تفسد وهي في طريقها إليك، ركام من الصور المخزونة، لا يجمعها إلا ارتباطات تأتيك بشكل غير منتظم، ليست طازجة، لكنها لحظتك على أية حال ويجب عليك الدفاع عنها، ولو بدون طاقة تعبيرية، فرفيقك لا يتحدث، ولذا، كنت تحاول طوال الوقت أن تبحث عن مادة كلامية أخرى بديلا عن الحروف وتراكيب الجُمل، مادة أخاذة، تبثها وأنت مغلق العينين، والفم، لسانك طريح حلقك، تجتهد في تحويل صوتك لفكرة، مع احتفاظك بالنسخة الأصلية لجوهر فكرتك في دماغك، سيكون ذلك مجهودا مستمرا لا نهاية له، على أية حال، يمكنك تكرار التجربة من جديد، ولكن بشكل مختلف.

-٦-

كنتُ أتفتت داخليًّا وأكاد أهوي من فرط تغفيلي، أفكر طوال الوقت في المناوشات التي لم تنقطع لسرقة الرأس من حوذتي، كان الليل يتسحب ويحبسني أسيرًا لنفسي وتخميناتي، من يكون هذا الرجل الطيف الذي خطف الرأس مني وأعطاني بدلًا منه بيضة؟ تأملتُ البيضة الحجرية مرة أخرى لعلي أدبّر معلومة تفيدني وتخرجني من خيبتي. كانت البيضة تُعلن عن كلمة واحدة مكتوبة من جانبها الظاهر "الله" ومن جانبها المسحوب كُتِبتْ كلمة واحدة ممسوح أغلبها ولا يظهر منها إلا الألف واللام فقط. رقدت البيضة في كفي وجرفني منحدر لم أتبيّن طبيعته من شدة الظلام، سقطت في مكان أشبه بوادٍ، لا زرع فيه ولا بشر، وسمعتُ أصواتًا كسقوط مياه تنحدر من أعلى، غصتُ حتى ركبتيّ في سائل أشبه بزيت، بعد قليل سمعتُ أصواتًا متداخلة، كنتُ أحاول صحصحة ذاكرتي وإنعاش دماغي قدر استطاعتي، في هذه الأثناء تعمّدتُ أن أقرص نفسي مرات لأتأكد أني في صحو ومسئول عن تصرفاتي، أشعر الآن بأن عقلي كالعجين، تفتت شذراته ولم يعد لخطوطه لون ولا شكل، كأن أفكاري تعرضتْ لقعر صندوق مليء بالمرايا الصغيرة، بداخله يمكن للجدول أن يكون نهرًا ويمكن للحصوة أن تصير جبلًا ويمكن للعطسة أن تُحدث زلزالًا. كذلك رأيتُ الرجل صاحب اللحية البيضاء يتكاثر في لمح البصر، حفّز من هم على شاكلته لكي

يطاردوني، وبدون تفكير نفذوا الأوامر الصادرة من كوخ أبيض بعيد، ماذا يريدون مني؟ لقد غفّلني الرجل وحصل على الرأس، أين ذهب به؟ هل رمى رأس أبي في هذه البركة الزيتية؟

تحرك الزيت بلا صوت، بصمت مطبق، ولكن حناجرهم أصدرت زمجرة:

- أيها الجاحد، فيم كنتَ تستخدم الرأس؟

-

- لا ترد. أقل شيء يمكن أن تفعله ألا ترد. ولكن نحن سنرد.

اقتربت مجموعة كبيرة من رجال أقوياء، يحملون رجلًا على محفّة من الأغصان واللباد، ولما أصبحوا بجواري قال متقدم الموكب:

- وصل كبيرنا.

نزل من فوق المحفّة رجل لا تظهر عليه علامات الوجاهة، قصير وله شارب محنّط فوق شفته، منكباه سمينان، وجلبابه نظيف. اقترب وهو يضيّق عينيه في تفحّص مريب، ثم أمر من كانوا يحملونه بأن يوضحوا له لوني، اقترب مني الرجل الذي تلقى الأوامر، كاد يدخل في حلقي، لفّ حولي لفة دائرية كاملة، كمن يعاين عبدًا في العصور الوسطى، قال وهو يرفع يده أمام وجهه كدرع:

- أحمر. لونه أحمر.

أزاح الرجل المحمول الرجل المأمور وأطال إليّ النظر،

تفحّص وزغر وقال لمن حوله:

- حسنا. فهو ليس أبيض.

ثم خصّني وهو يردف:

- ليلتك طيبة. فأنا لا يمكنني أن أرى إلا لونين فقط. الأبيض والأحمر.

كانوا كلهم متشابهون حد التطابق، تميّزهم ابتسامة هازئة من كل شيء، تصوّرتُ أنهم من نسل شخص واحد، قفزوا بالقرب مني، لم يعد يفصلنا سوى خطوات قليلة، لم أعرف ماذا يريدون، كانوا كالعملة التي ولّى زمنها، يلمعون في الظلام كأسماك فضية طافية. حَطّ طائر غريب الشكل على مؤخرة أحدهم وظل ينقرها قبل أن يفيق الرجل ويهشّ عليه، ولما طار قال أحدهم:

- اثبت يا رجل.

انتبه صاحبهم منقور المؤخرة وظل يصيح:

- لو حُزْتَ هذا الرأس مرة أخرى سنطبق عليك العقوبات المنصوصة كما هي. هه. بحذافيرها.

أمرهم كبيرهم بالاتجاه نحوي ففعلوا، نظرتُ في كفي فلم أجد إلا البيضة الحجرية، قلّبتها على كل الجوانب وهوشّتهم بها مرارًا، كانوا يرمشون بخوف غريزي ولكنهم يتبعونني بإصرار غريب، وأنا أغوص في السائل اللزج كلما انزلقت إلى المنحدر، غطى الزيت الأسود مساحات كبيرة من جسدي حتى وصل لصرّتي، بعد خطوات قليلة في اتجاه الهروب منهم وصل السائل لصدري، وهُنا شعرتُ بأن نَفَسي يغيب

ويصعب عليّ سحب الشهيق، أحسستُ بأن إناء معدنيًّا ثقيلًا ينكبس فوق رأسي، قَلّ ركضي حتى خَفَتَ تمامًا وتسمّرتُ في مكاني، فاقتربوا مني وكانوا كثرًا، نظروا عاليًا إلى السماء، بينما الأرض حافلة بعجائب الأشياء. بركة لزجة بها سائل أسود. حولها أناس لا أعرف ماذا يريدون مني. وعلى مدد الشوف نظرت، وقلت:

– أرى أصدافًا وأشجارًا وأزهارًا وكواكب سيّارة ألمح منها ذيولًا رمادية بارقة.

نظر أحدهم إليّ وقال:

– أشجار وأزهار. يبدو أنك حُزت الرأس لمدة طويلة حتى أصبح ذلك يشكل خطورة كبيرة عليك؟

– ماذا تقصد؟

– أنا لا أسألك في صهر المعادن حتى تتغابى.

وقبل أن أشغل نفسي بالبحث عن إجابة كانت الأرض تنسحب من تحت قدمي ببطء، ومحدثي يتقدم موكبه ناحيتي، انقلبت الوجوه وصارت الرؤوس لأسفل، وصرتُ أبحث عن لغة أحدثهم بها، كان عقلي يحتاج إلى طاقة كبيرة ليستوعب ما يحدث من حولي. رأيتُ الرجل صاحب اللحية البيضاء منتشيًا، والناس في الأسفل ينتظرون أي رد فعل من قائدهم، كنتُ أغوص في السائل الأسود، لم يعد بإمكاني التحكّم في قدمي نهائيًّا، وكان جسدي ينزلق برفق، حتى شعرتُ به يسبح، يطير، يميل موروبًا حتى اختلطت أشكال الناس وأحجامهم أمامي، كان من الصعب عليّ تحديد أي

هيئة أو حركة بشكل دقيق، في هذه الأثناء كان السائل قد وصل لعنقي، لم يبق طافيًا مني إلا الرأس، اقتربوا مني وأوثقوني بالحبال، وهنا أشار الرجل صاحب اللحية البيضاء لمريديه بإصبعيه وقال:

- اتركوا ما اختفى منه. أنا لا أريد غير هذا.

وانتصبت ذراعه نحو رأسي.

* * *

أنت لم تستيقظ بعد، لم يُرد إليك وعيك بشكل كامل، تتحسس رأسك وتهرش بين فخذيك، عينك كأنها قطعة رصاص مصبوبة في تجويف جمجمتك، تشعر بعين واحدة، جافة كأنها مُشرّبة بالجبس، وبطنك، بطنك متجمد ومكتوم كهادة تئن تحت كثافة ضاغطة، ورأسك ثقيل كحجر، هل أصبحت بناء في صرح ما، أنت لم تستيقظ بعد، أنت في غيبوبة مؤقتة، مؤقتة، ستتعافى بعدها، ربما، لا تشعر بوجودك، أنت مجرد ربما، لك كف واحدة تُروّح الهواء، كف في نفس اتجاه العين، مشطور أنت، تختلط في أذنك الأصوات، أذن واحدة أيضًا، لا يمكنك تمييز الهمهمة القريبة من الصراخ البعيد، وضوء كأنه قشر سمك زجاجي يتناثر في فضاء الغرفة، أي غرفة؟ بالكاد رفعت جفنا واحدا، ولم تر شيئا، فخذاك باردتان، وما بينهما ميت، مات وحده، أما مخك، فهو خامل بأفكاره البعيدة، تتلاحق فيه التراكيب والجُمل، لو فقط في السابق كتبت بعض الملاحظات أثناء وجود رأسك، عندما كانت معك أمك وجدتك، لكنت قد استعنت بهذه المؤونة

الآن، لكانت قد أفادتك في هذه المتاهة، ولكنك لم تكتب شيئا، لسبب ما لم تكتب، ويمكنك أن تموت دون معرفة ما مررت به أثناء حياتك، حياتك، ظاهرها واقعي وجوهرها تخيلي، تستعيد طفولتك الضائعة وأنت تمشي بجوار أبيك، تستعيد، نعم تستعيد، عندما كنت تجلس بين جدتك وأمك، بدون أب، مللت من كثرة الكلام، والآن وصلت بسبب الصمت حد الجنون، تشبه الدنيا في عينك حزمة من قش جاف، لن يشبعك مضغه بقدر ما تخزك أعواده المدببة.

بخيال مجازي يمكن أن تشطب وجود أبيك، تلغيه من حياتك مرة أخرى، فهو بلا فائدة حقيقية تُذكر، مجرد جسد، لا يهمه أن تبحث عن أناقة أسلوبية في تعبيرك وأنت تخاطبه، ولا يعنيه كذلك لو أن الفكرة الأصلية لكلامك تلطخت بما ليس فيها، لماذا تحاول الآن، وأنت في هذه الحال أن تنمق ما له علاقة بالماضي، ذهبت المرحلة العمرية ولم يعد من السهل تحسسها، لم تعد اللغة مترابطة، حيث الكلمات هي مجرد كلمات. تحاول تحليل الوقائع كما تكمن في ذهنك، لا تركض خلف الجُمَل لتعديل مسارها، تستدعيها كما هي، تستدعي واقعك كما حدث في الماضي، وتضعه كما هو في زمن آخر، ولا تلهث، فساعتك أم عقارب كفيلة وحدها بإنجاز المهمة.

-٧-

بعد أن فكوا وثاقي لم أجد حولي أي سوائل لزجة، هُيئ لي بأني في مكان أعرفه، بيت قديم له في دماغي ذكرى حُلوة ورائحة مميزة، ولكنه بيت عاد إلى الوراء كثيرًا، تنازلت محارته عنه، وكذلك دهانه، وديكوراته، كان هنا كومودينو، يوضع فوقه، نعم يوضع فوقه طعام وأدوية، وكانت لي جدة، نعم جدة، أُم أمي، أين ذهبتا؟ لماذا أنا مُنصاع لهولاء الناس الذين يقهرونني بشتى الوسائل، وزعيمهم لا يزال واقفًا عند كوخه العالي، يأمرهم وينساقون بلا تفكير، لا يردون له مطلبًا، ولا يراجعونه فيما يقول، حتى لو قال ريّان يا فجل، لقد قلت مثلًا شعبيًا، تقريبًا مثلًا شعبيًا، ماذا يعني مثل، وما المقصود بشعبي؟ وهل هذا الفجل شيئًا يؤكل؟

فرشت من حولي حروفي، رتبتها من جديد بما يناسب الكامن في نفسي، بحثت عن ارتباطات جاهزة في دماغي وفشلت، لم أحصل على أية معلومات، كل ما عشته قبل البوابة، وكأنني بدأت كل شيء على عتبتها. التفّ حولي أشخاص أعتقد بأني رأيتهم من قبل. وهُيئ لي بأنه لم تزل لي أذن أسمع بها ما يقولون.

أمسك أحدهم برقبة عِجل أحمر سليم البنية وذبحه، وقال الرجل صاحب اللحية البيضاء أنه لا يحب من اللحوم إلا الرؤوس، فقذفوا له بفرحة مجنونة رأس العجل الذي لا يزال ينبض بالحركة وعنقه يقطر بسائل الدم.

بعد قليل هُيئ لي بأن أنفي نبتت له فتحتان، وأول ما تسلل إليهما رائحة كافور وبرسيم مهروس، ولما أيقنتُ بأني أرى تجولت من حولي بهائمُ كثيرة، كانت تمضغ البرسيم الموفور تلالًا خضراء على مدد الشوف، ورأيتُ رجلًا يجز بإخلاص عود كافور كبيرًا بمنشار مزدوج المقبض، ويساعده في ذلك شخص آخر. أحسستُ بطرقعة في عظامي توحي بأني نمتُ مئة عام، نومًا مليئا بالأحلام المتفرقة، ولكن هذا ما كنتُ أظنه قبل أن تختفي البهائم وعود الكافور المجذوذ.

ظهر أمامي وجه رأيته من قبل وارتحتُ إليه، خرجت من كارت أبيض وأسود صغير في حجم الكف، طلت نفس الملامح تهيم من حولي، أمي، اقتربتْ وهي تحمل رأس أبي وتقدمه إليّ، وعندما مددتُ يدي دفعتْ الرأس حتى أقترب، قد خف الظلام عندما بانت ملامح الرأس. لم تنطق أمي بكلمة، ولم تحاول، كانت مبتسمة طوال الوقت، وكأنها حصلتْ على هدية مهمة ممتدة الأثر والمفعول، وعندما لمست يدي رأس أبي المستكين اقترب مني طفل لا أعرفه، أشارت أمي إليه ثم اختفت، مددتُ يدي فتجاوب الطفل ومد يده هو الآخر، لما تشابكت الأيادي وعاد الرأس لحوذتي وجدتُ قدمي تمشي في اتجاه الطفل، كان يُشبهني وأنا صغير إلى حد كبير، ومثلي يلبس ساعة قديمة بعقارب، ولكنها صغيرة وتناسب يد طفل، عقاربها متأخرة قليلًا عن ساعتي، أين ساعتي؟ لا بد فقدتها في بركة السائل اللزج. أو في معركة صاحب الجمل، هل دخلتُ في معركة معه من الأصل؟ كل ما أتذكره أن صاحب الجمل كان ينقل معلومات لمدير

المستشفى والحراس مقابل أجر كبير، وعندما عرفتُ ذلك تمنيتُ أن أحطم رأسه وأجعل لحيته البيضاء تشخب من دمه، ولكني لا أتذكر، هل وقف الأمر عند التمني أم أني تجاوزتُ ذلك وفعلتُ ما أتمناه؟

لما نشطت خطواتي وأنا أسحب معي رفيقي، الطفل، رأيتهم علينا يهجمون، طلوع النهار أظهر ملامحهم على حقيقتها، كانوا بشرًا مثلي ومثل الطفل تمامًا، ملامحهم ثابتة على قسوتها، وفجأة قرروا مطاردتنا حتى النفس الأخير، قفزتُ والطفل في يدي فوق كل ما قابلنا، أكداس الركام والجثث الملقاة والأشجار المقروطة، كان الطفل خفيفًا كالريشة، شعرتُ بأني لا أصطحب إلا نفسي، لما أسرعنا الخُطى سبقناهم بمسافات شاسعة حتى اختفوا عن أنظارنا، رأيتُ المدينة أمامي خامدة، كأن كوكبًا سقط فوق كل كائناتها مرة واحدة، أو جرفتها أحداث قرن كامل من التناحر.

أخذني الطفل من يدي، سحبني فوق الركام والخراب، كانت الجثث تئن تحت وطء أقدامنا، تتقوّس عظامها وتطرقع. فسألته:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى البستان.

-

- صدقني. خلف كل هذا الدمار بستان.

انسقتُ خلف خطواته، عبرتُ فوق الجثث، كان الطفل خفيفًا جدًا، في وزن ساعة قديمة بعقارب، لم تشعر الأبدان

الهامدة تحت الأرض بمرور كائن فوقها، ولم يكن شيء يجعلني أصدق أن هناك بستانًا حقيقيًا إلا ورقة شجر كانت عالقة فوق كتفه.

* * *

وترى أمك مجهدة كريشة ضربتها الريح، وقفتْ صامتة لفترة، تمسك في يدها صبيا صغيرا يشبهك، أعطتك إيّاه ثم قالت وهي تشير إليه:

-لكل مدينة قمر غير الذي في السماء.

اقتربوا منكما، لحاهم تلمع على ضوء القمر، شبرا أو يزيد وبلون قشرة الرمان، قال أحدهم وهو يملس على لحيته:

-ألا تستحي؟ تأتي بأمك إلى هنا، بنفسك. أمك. إلى هنا.

اقتربتْ منك أمك وقالت بصوت مرتفع:

-لا تصدقهم. إذا ألح شخص ما بشدة على رفض شيء فاعلم أنه يريده.

ثم وضعتْ يدها على الطفل الصغير الذي يشبهك وقالت:

- هم لا يريدون القمر. هم يريدون قمرهم.

انعكس ضوء القمر على الرجل فزاد اللون الفضي من احتقان ملامحه، صرير أسنانه يكادُ يُسمع، لو وضع بين فكيه الآن زلطة لجرشها من شدّة الغيظ، لا تعلم على وجه الدقّة ما الذي أثاره بهذا الشكل، ومن حوله يلتف مريدوه، متجهمين استعدادا لفتك قريب، أعينهم جاحظة وبعيدة عن

محاجرها، على وجوههم تقطيبة كأنهم يأكلون حشرات. تقدّم رجل يتدلّى كرشه أمامه شبرين، هاج جميع مريديه وأخذوا يسبّون أمك بصوت غليظ مصطنع، حجزهم كبيرهم بيديه. فأمسكتْ أمك بيد الطفل الذي يشبهك وانصرفتْ، حاول الرجل اللحاق بها فلم يتمكن، ساعده مريدوه فلم تسعفهم حيلهم ولا أجسادهم الثقيلة. بسرعة غير ملموحة سلّمتْك أمك ذراع الطفل، وقفتَ وأنت تحدّق بقوة محاولا الوصول لرؤية كاملة، كنت تشبه في وقفتك حرف أ، وعندما وقف الطفل الصغير بجوارك أصبحتما كـ أ ولا م، رفعت يدك لتحيي أمك فأضيفت لا م أخرى، أما أمك فقد تماهت مع ضوء القمر حتى أصبحتْ كحرف هاء مربوطة تُتمم المشهد.

شكر واجب لـــ

عماد العادلي.
إبراهيم محمد علي.
ندى عمرو.

عمرو العادلي

كاتب مصري

ماجستير في علم اجتماع الأدب من جامعة عين شمس.

صدر له ست روايات:

1-(إغواء يوسف) 2011عن دار ميريت.

2-(كتالوج شندلر) 2013 عن دار نهضة مصر.

3-(الزيارة) طبعة أولى 2014. عن دار أكتب.

4-(رحلة العائلة غير المُقدَّسة) عن الدار المصريَّة اللبنانية 2015.

5-(اسمي فاطمة) عن الدار المصرية اللبنانية 2017.

6-(قبل المساء) عن الدار المصرية اللبنانية 2018.

7-كما صدر له رواية واحدة للأطفال بعنوان المصباح والزجاجة عن دار الرواق 2017.

كما صدر له خمس مجموعات قصصية:

1-(خبز أسود) 2008 عن دار ملامح

2-(جوابات للسما) 2009 عن دار ملامح

3-(حكاية يوسف إدريس) 2012 عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

4-(عالم فرانشي) عام 2016 عن دار الرواق.

5-(و) عن دار كيان عام 2017.

الجوائز:

1-جائزة الدولة التشجيعية عن روايته (الزيارة) عام 2015.

2-جائزة ساويرس فرع كبار الأدباء عن مجموعته القصصية (حكاية يوسف إدريس) عام 2015.

3-جائزة اتحاد كتاب مصر عن رواية رحلة العائلة غير المقدسة 2017.

4-ترشح روايته(المصباح والزجاجة) للقائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد لأدب الطفل عام 2018.

5- ترشح روايته (اسمي فاطمة) للقائمة الطويلة في جائزة الشيخ زايد في الآداب عام 2019.

***

كيان للنشر والتوزيع

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678- 0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01000405450**

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية يمكنكم متابعتنا على الروابط التالية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing